السبيل
إلى
منهج الطائفة المنصورة
(٥)

صفات
الطائفة المنصورة ومفاهمها

بقلم
عدنان بن محمد آل عرعور

مؤسسة قرطبة
طباعة . نشر . توزيع
ت : ٥٣٥٠٢٧

السبيل
إلى
منهج الطائفة المنصورة
(٥)

صفات الطائفة المنصورة ومفاهيمها

- القِسْمُ الخامس -

بقلم
عدنان بن محمد آل عرعور

التاريخ

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الثانية المزيدة والمنقحة

١٤١٦ هـ ١٩٩٥ م

مؤسسة منارة قرطبة

للجمع التصويري وتجهيزات الطباعة

٦٤ ش الخليفة ☆ مدينة الأندلس ☆ الهرم ☆ الجيزة

ت ٥٣٥٠٢٧

السَّبيل الخامس

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

إنَّ الحمد لله نحمدُه ونستعينُه ونستغفرُه ، ونَعوذُ باللَّهِ من شُرورِ أنفسِنا ومن سيئاتِ أعمالِنا ، مَن يَهدِهِ اللَّهُ فلا مُضِلَّ له ، ومن يُضْلِلْ فلا هاديَ له ، وأشهدُ أن لا إلهَ إلاَّ اللَّهُ وحدَهُ لا شَريكَ له ، وأشهدُ أنَّ محمداً عبدُهُ ورسولُه

أمَّا بعد :

فإنّ كل منصف واع يطلّع على واقع أمتنا التعيس ، وما قُدّم في كتاب « السبيل » هذا ، من تحليلات شرعيّة لهذا الواقع ، يدرك أنه لا شفاء لهذه الأمّة من أمراضها ، ولا نجاة لها من مصائبها ، ولا نصر لها على عدوّها ، ولا تمكين لها في أرض الله جميعاً ، إلا بالرجوع إلى دينها ، شريطة التزام الضابط الذي يضبط لها الفهم الصحيح ، والمنهج الذي ينير لها الدرب .. وحينئذ يوحّد الفهم ، ويتّحد الطريق ، فيكون الخير والفلاح

وأنّ الله عز وجلّ لم يدع الأمر هملاً ، كلٌّ يفهم دينه كما يرى ، وكلٌّ يسير كما يجتهد ، بل بيّن هذا الضابط بنفسه ، ووضع هذا الميزان في كتابه كي تُقام الحجّة ، ويوحّد المنهج

وقد ثبت بالأدلّة القطعيّة ، من الكتاب والسنّة ، وكلام الأئمّة ، والعقل

السليم ، والواقع المدروس على ضوء الكتاب والسنة ، وتحليلهما للأحداث ، أن ضابط الفهم ، وميزان العمل هو : ما كان عليه الصحابة رضوان الله عليهم ، ومن تبعهم بإحسان في العقيدة والمنهج ، والشريعة والسلوك ، وأنهم الطائفة المنصورة ، والفرقة الناجية .

وأن لهذه الطائفة الوحيدة ، أصولاً وقواعد ، ومنهجاً ومفاهيم ، وأسساً وصفات تتميّز بها عن الطوائف المخطئة ، والفرق المنحرفة .

وأن كلّ من خرج عن هذه المفاهيم والأصول ، فقد أبعد الفهم ، وضلّ السبيل .. كذلك كانت الطوائف من قبل ، وكذلك ستكون الطوائف من بعد ، مهما كانت نياتهم ، ومهما كانت تضحياتهم ، ومهما كانت أدلتهم وستبقى هذه الجماعات تعيش في تمزّقها ، وترسف في ضعفها ، وتراوح في مكانها .. تلهث ولا تسير ، تسقط ولا تنهض ، تصرخ ولا تعمل ... تقوم من مصيبة لتقع في كارثة .. وتخرج من كيد لتسقط في فخ وستبقى هكذا .. حتى تدرك هذا المنهج ، وتسلك هذا السبيل ، سبيل الطائفة المنصورة

﴿ ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ﴾

وإلا ؛ فستظل هذه الفرق تتخبط في تيهها مهما بذلت ، ومهما اجتهدت

﴿ فستذكرون ما أقول لكم وأفوض أمري إلى الله ﴾ .. إلى أن تدرك هذه الحقيقة حقيقة اتباع منهج الفرقة الناجية ، وعندئذ يتحقق وعد الله ، ويتنزل نصره

﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنّ لهم دينهم الذي ارتضى لهم ، وليُبدِّلنّهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا يشركون بي شيئا ﴾ .

وبناء على هذا ؛ فاعلم : أنه لا هداية للعبد دون السير على طريق أهل السنة والجماعة ، وأن لا سير صحيح إلا بعد معرفة « السبيل » .

وأن لا سبيل لتوحيد الأمّة الإسلامية وتمكينها إلا بمعرفة معالم الطائفة المنصورة والالتزام بها

وفضلاً عمّا سبق فإنه لا نجاة للعبد من عذاب اللّه يوم القيامة ، ولا الفوز بالجنة ، إلا باعتقاد عقيدة الفرقة الناجية ، والسير على منهاجها ..

وهاك « السبيل » بأجزائه ، خطوة جادّة شرعيّة واقعيّة ، لرسم الطريق الأقوم لنهوض هذه الأمة من كبوتها ، واستفاقتها من غفوتها .

وليس المقصود بهذا الكتاب رجلاً معيّناً ، ولا جماعة مخصوصة، بقدر ما هو تشخيص حقيقي لواقع مؤلم ، ومعالجة صحيحة لهذا الواقع فضلاً عن أنه سعي صادق ، وخطوة منضبطة ، لتوجيه هذه الصحوة وتأصيلها ، وتوعية أفرادها وتثبيتهم على الحق ، والمنهج المثمر ..

لا تربيتهم على العاطفة الجيّاشة ، والحماسة المؤقّتة ، اللتين تزولان بصيحة ، وتنطفئان بنفخة .. وهذا هو الذي يُفْرحُ أعداءهم ، إذ إليه يصبون ، ومنه يخترقون وبتأصيلهم وحسن تربيتهم ، يبقون ما بقي الحق ، ويصمدون كما صمد الأنبياء، فينالون ما نالوا من التوفيق في الدنيا ، والفوز في الآخرة

ويكفينا عبرة ما حلّ بنا من كوارث ، وما نصب لنا من أفخاخ ، وآن لنا أن ندرك الطريق المستقيم ، ونسلك المحجّة الواضحة .

وقد ذُكر في الجزء الأول منه : الواقع المضطرب الذي يعيشه العالم ، والحال المؤلمة التي يعيش فيها عالمنا الإسلامي ، وبُيّن فيه الأسباب الحقيقيّة الكامنة

وراء هذا الضعف ... من جهل بحقيقة هذا الدين وأهدافه ، وتفرق مخزٍ ، وفقدان للإخلاص والذات ، فضلاً عمّا يكيده أعداء الله بهذه الأمة ، وما يتربصون بها ، كما ذُكر فيه أخطاء التشخيص ، والمعالجة المرتجلة ، وصور مؤلمة من صور التربية التي تمارسها بعض الجماعات الإسلامية ثم ذكر طريقة العلاج ، وسبيل النجاة، وعواصم الحفظ.

ووُضّح في الجزء الثاني منه السبيل الأمثل والوحيد لضبط فهم الكتاب والسنّة، والذي به يزول الخلاف ، وتتوحد الأمّة ، وهو أصل أصول الطائفة المنصورة ، ثم ذُكر فيه أصلان من أصولها

وعُرّج في الجزء الثالث : على أصل عظيم من أصول الطائفة المنصورة ، وسبيل قويم من سبلها ، يبيّن سبب الانحراف وخطورته ، ومعنى الاتباع ووجوبه ، ومعنى الابتداع وحرمته ، وعلامات كلٍ من أصحاب الطريقين ، ثم خُتم ببعض قواعد الإنصاف التي تضبط المسلم على الصراط ، وتقيه من الانحراف ، من غير جفاء منفّر ، ولا غلو مقيت ، ولا تساهل مشين.

وفي الجزء الرابع : عُرض أصل « السمع والطاعة » ، وحدودهما ، وموقف المؤمن الصادق منهما، وحال المسلمين منهما .. وفصّل فيه الأصل الخامس : موقف العقل من الشرع ، وحكم تعارضهما ، وموقف الطوائف الأخرى من هذا الأصل العظيم ، وبيّن فيه الأصل السادس : « الجمع بين النصوص » وطرقه ووجوهه ، وهذا الأصل هو : فصل الخطاب بين الطائفة المنصورة وطوائف الضلال ، الذين يضربون النصوص بعضها بعض ، فلا يدرون توفيقاً ، ولا يحسنون جمعاً

وذُكر فيه أمثلة مفيدة من الكتاب والسنة على ذلك ، تنير لطالب العلم

سبيل هدا الأصل ، وتبيّن له أن أصل ضلال الطوائف الأخرى ، هو إعراضهم عن هذا الأصل العظيم

وفي هذا الجزء : ذُكر ثلاث صفات من صفات الطائفة المنصورة ، والتي يمكن للمرء أن يميّز بها طائفة الحق عن طوائف الضلالة ، وضُربت أمثلةٌ واقعية لتوضيح هذه الصفات وفهمها

كما ذُكر ثلاثة مفاهيم من مفاهيم هده الطائفة ، تُجلّي حقيقة واقع المسلمين ، والأسباب الحقيقية الكامنة وراء هذا الضعف ، الذي كان وراء هذا الذلّ الذي تعيشه أمّتنا الإسلاميّة .. ثم ذكر إشكالات مهمّة لبعض الجماعات الإسلامية وأجبت عنها ، مثل : « إلى متى نربّي » ، « نحن نربّي وهم يهدمون » ، إلى غير ذلك من حديث الصحوة الإسلامية

وسيتتابع السبيل - إن شاء الله - في أجزائه القادمة ، على ذكر بقية أصول الطائفة الناجية التي بالتزامها يزول الخلاف ، وعلى ذكر صفاتها التي بها تتميّز عن الطوائف الضالة ، ومفاهيمها التي بها يوضح طريق تشخيص أمراض الأمّة وسُبل معالجتها ، ثم النهوض بها

ومن رأى في هذا الكتاب شيئاً ، فليتدبّر قبل أن يتعجّل ، وليستفصل قبل أن يحكم ، ولينصح قبل أن يفضح ، ومن خالف شيئا من هذا فقد اتصف بصفة من صفات المنافقين

ولقد ذكرت سرّ كثرة استشهادي بأقوال الداعية سيد قطب رحمه الله في الجزء الأول فلتراجع .

والله أسأل : أن ينفع به ، وأن يجعله خالصاً لوجهه .. وما كان من خطأ فمن نفسي والشيطان ، وما كان من صواب فمن توفيق الرحمن ، وصلى الله وسلم على النبي المختار، وعلى آله وصحبه البررة الأخيار وعلى من تبعهم بإحسان إلى يوم القرار . وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

وكتبه

عدنان بن محمد آل عرعور

مباحث هذا الجزء

- المقدمة
- **من صفات الطائفة المنصورة**

الأولى - صفة الاستمراريّة

الثانية - صفة الاجتماع على التوحيد والمنهاج والمفارقة عليها

الثالثة - صفة الشمولية

- **من مفاهيم الطائفة المنصورة**

الأول - كل ما أصابنا فبما كسبت أيدينا

الثاني - تغيير واقعنا إنما يكون بتغيير ما بنفوسنا

الثالث - تربية الفرد ، ووحدة الصف قبل مناجزة العدو

- خلاصة ما في الأجزاء السابقة

من
صفات الطائفة المنصورة الناجية

اعلم - هداني الله وإياك - أنه كما للطائفة المنصورة أصول تتبنّاها ، وقواعد تعمل بمقتضاها ، فإن لها كذلك صفاتٍ تُعرف بها ، وسمات تُميزها عن تلك الطوائف المنحرفة ، التي حكم عليها رسول اللَّه ﷺ بالضلال في الدنيا ، والعذاب بالنار يوم القيامة ، أعاذنا اللَّه وإياكم منها :

وأهمّ هذه الصفات :

الصفة الأولى من صفات الطائفة المنصورة:

صفة الاستمرارية

اعلم أنَّ أول صفة تتميّز بها الطائفة المنصورة عن الطوائف الضالة الأخرى هي صفة « الاستمرارية »

أي: إنَّ الطائفة المنصورة، مستمرة بوجودها ، ومقوّماتها ، وأصولها ، ودعوتها، ومنهجها ورجالها من لَدُنْ رسول اللَّه ﷺ إلى ساعتنا هذه ، بل إلى يوم القيامة [1]

ودليلُ هذا قوله تعالى :

﴿ **والسابقون الأوَّلون من المهاجرين والأنصار والذين اتَّبعوهم بإحسانٍ رضي اللّٰه عنهم ورضوا عنه** ﴾ [التوبة:١٠٠]

ففي قوله تعالى : ﴿ **السّابقون الأولون** ﴾ إشارةٌ إلى تاريخ بدء هذه الجماعة ، وإلى أنَّها أناسٌ ، لا منهج مجرد

---

(١) قد حصل بين بعض الأخوة الأفاضل خلافٌ في الطائفة المنصورة ، هل هي منهاج وسلوك؟ ... أم طائفة من الناس ؟

والصواب الذي لا ريب فيه : هو ما ذكرناه في « السبيل » الطبعة الأولى منذ سنين ، وقبل نشوء هذا الخلاف ، أنَّ الطائفة المنصورة ، هي : منهاج وأصول ومقومات وسلوك ، وطائفة من الناس يسيرون على هذا السبيل ؛ ولا معنى لمنهاج بلا طائفة ، ولا لطائفة بلا منهاج ، فتدبّر هذا فهو فصل الخطاب إن شاءَ اللّٰهُ - في هذه المسألة

وفي قوله تعالى : ﴿ والذين اتَّبعوهم ﴾ إشارة إلى استمرارية هذا الوجود ، وعموميته ، وعدم انقطاعه ، وأن ثمّةَ رجالاً مستمرون على هذا السبيل ، وأنَّ قوام هذا الاستمرار ، هو : الاتباع ﴿ اتبعوهم ﴾ .

فإذا فُقِد حَمَلَة المنهج ، أو انعدم شرط الاتباع ؛ فقدت الجماعة هذه الصفة ، وبالتالي فليست هي الطائفة المنصورة

من السنة :

ويؤيد هذا ويوضحه قوله ﷺ :

« لا تزال طائفةٌ من أمتي ظاهرين على الحق حتى يأتيهم أمر اللَّه وهم ظاهرون » [1]

ففي قوله ﷺ : « لا تزال » دلالةٌ واضحةٌ ، وبينةٌ ناصعةٌ على صفة « الاستمرارية » للطائفة المنصورة

وفي قوله ﷺ : « طائفة » دليلٌ على وجود الجماعة التي تَنصُر فَتُنصَر ، وهي بمنزلة السند في الحديث ، وهم كالسلسلة تأخذ كلُّ حلقة بعنق أختها ، بلا انقطاع زمني ، ولا انفصال بشري

وفي قوله ﷺ : « ظاهرين على الحق » دليلٌ على وجود المنهاج ، والقيام بأمره ، قولاً وعملاً .. حركة ورسماً

قال شيخ الإسلام : لكن أهل السنة يبقون ويبقى ذكرهم ، وأهل البدعة يموتون ويموت ذكرهم [2]

(١) أخرجه البخاري (رقم ٧٣١١ ، ٧٤٥٩، ...) ، ومسلم (١٥٢٣/٣) وغيرهما .

(٢) الفتاوي (٣٨/٢٨)

وإذن ؛ فالطائفة المنصورة الناجية ، هي : منهج ومقومات ، وجماعة ورجالات تقوم على هذا المنهج ، وتستمسك بتلك المقومات ، وهي ظاهرة على هذا ؛ عقيدة ومسلكاً ، شريعةً وخلقاً ، وجهاداً بالقول والعمل والسنان ، فتارة هذا ، وتارة هذا ، حسب الظروف والأحوال ، ومقتضى الشريعة الغراء

وهكذا كان رسول اللَّه ﷺ وأصحابه ..

تارة يجاهدون بالقرآن : ﴿ **وجاهدهم به جهاداً كبيراً** ﴾ [الفرقان:٥٢]

وتارة بالدعوة : ﴿ **أُدعُ إلى سبيلِ ربِّكَ بالحكمة والموعظةِ الحسنة** ﴾ [النحل:١٢٥]

وتارة بالسِّنان : ﴿ **وقاتِلوهم حتى لا تكون فتنة** ﴾ [البقرة:١٩٣]

وبناء على هذه الصفة - صفة الاستمرارية - فإنَّ أيَّ جماعة نشأت بعد رسول اللَّه ﷺ بمنهج أو تحزب ، أو سياسة أو تفرّق ، أو خرجت عن الجماعة الأم ، بعقيدة أو فكر ، أو بابتداع أو منهج ، فهي : **جماعة مقطوعة السند ، غير ناجية المآل** ، إذ لم يتحقق فيها شروط صحة السند وهي : « نقل العدل الضابط عن العدل الضابط إلى منتهاه من غير شذوذ ولا علة » ،

فلا بدّ من أن يكون في أوَّل السندِ الصحابةُ رضوان اللَّه عليهم ثم في الطبقة الثانية التابعون من بعدهم ، وهكذا إلى يومنا هذا .. جيل عن جيل

وفي حال إنشاء جماعة جديدة ، بفكر جديد ، أو منهاج جديد ، أو رسم جديد ، فالسند - والحالةُ هذه - مرسلٌ منقطع ، والطائفة هذه : فاقدةٌ لصفة الاستمرارية التي هي : الفارق الأكبر ، والميزة العظمى ؛ فهي - إذن - ليست منصورة ، ولا ناجية

وانقطاع السند يؤدي إلى انحراف في المتن والمنهج ، وهو ما يسميه

المحدثون الشذوذ والنكارة ، وهكذا كان شأن الطوائف التي خرجت عن الجماعة الأم ، من خوارج ومعتزلة وغيرهم إنما ضلّوا لشذوذهم عن الصحابة .. ولنكارة ما أحدثوه ، من فكر وطرق

وكلّما طال الزمن ، زاد الانحراف ، وازداد الضلال ، كَضِلْعَي الزاوية تماماً ، كلّما امتدا ابتعدا بعضهما عن بعض كما سبق بيانه

وكذلك كلُّ طائفة انقرضت وانتهت ، أو انقطع نسلها ، وبارت رجالها ... فهي معلَّقة السند ، ومن ثَمَّ فهي جماعةٌ مبتورة الأثر غير ناجية المآل ، ولو أعاد سيرتَها رجال بعد ذلك ، لأنَّها فقدت حلقاتٍ في سندها ... وبذلك فقدت صفةَ الاستمرارية ، التي هي شرطٌ في الجماعة الناجية

والحقيقة : أنَّ هذه الصفة - صفة الاستمرارية - من أبرز صفات الطائفة المنصورة ، تمييزاً لها عن الطوائف الهالكة ، أو الطوائف النابتة

إذ بسهولة ... ولأوّل وهلة ، يدرك المرء العاقل بهذه الصفة ؛ الطائفةَ الناجيةَ من غيرها ، فهو يدرك : أن الطائفة التي تُقر أنَّها تأسست منذ كذا وكذا ، وأنَّ مؤسسها فلان ، هي طائفةٌ حكمت على نفسها ، وشهدت بلسان مقالها وفعالها ، أنَّها لا تتّصف بصفة الاستمرارية ، التي هي من أهم صفات الطائفة المنصورة ، ومميزاتها على الطوائف الضالة ، **ذلك بأن الطائفة الناجية لا مؤسِّس لها إلّا رسول الله ﷺ**

فلا تأسيس للطائفة المنصورة مُحْدَثٌ بعد التأسيس الأول ، ولا فكر لها جديد ، ولا عقيدة لها مبتدعة ، ولا منهج لها مخترع

﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً ﴾ [المائدة:٣]

« اتَّبعوا ولا تبتدعوا فقد كفيتم ، عليكم بالأمر العتيق » ، [١] أي : الأول الأصيل

فاللهم هداك

---

(١) من قول ابن مسعود ، وقد سبق تخريجه

الصفة الثانية للطائفة المنصورة :

الاجتماع على التوحيد والمنهاج ، والمفارقة عليهما

فالطائفة المنصورة لا تجتمع على أساس ، إلّا أساس التوحيد والمنهاج ، ولا تفارق الناس إلّا عليهما

فلا يكون أسّ اجتماعها ، ولا محور عملها ، على فقه ولا زهد ، ولا سنة ولا واجب ، ولا سياسة ولا جهاد ، ولا رمز ولا نسب ، ولا تفترق لخلاف في سنة أو واجب ، أو مكروه أو محرم ، أو رجل ، أو حسب ، أو نزعات شخصية ، أو خلافات إدارية ، أو مواقف سياسية

والمقصود بالاجتماع هاهنا ؛ أن لا يكون أساس اجتماعها إلّا على هذا – وإلاّ فالاجتماع على هذه الأمور الشرعية ، والتعاون عليها واجب معروف ،

وانما يكون التوحيدُ « العقيدة » أساسَها ، والمنهجُ محورَها ، والإسلامُ إطارَها ، وطريق الطائفة المنصورة طريقها

والمقصود بكون التوحيد أساساً لها ، والمنهج محورها ، أي : لا تَقبل في صفوفها إلّا الموحّدين ، ولا تبدأ دعوتها إلّا بالتوحيد ، ولا تربّي أتباعها إلّا على الإيمان والتوحيد ، ولا تسير إلّا على منهاج عندها فيه من اللّه برهان ، ولا برهان إلا على منهج أصحاب رسول الله ﷺ ومن تبعهم بإحسان

فعليهما تجتمع ، وفيهما تفارق ، وعليهما توالي ، وفيهما تعادي

هكذا فعل رسول اللَّه ﷺ في مكة ... وهكذا دعا ...

دعا ثلاثة عشر عاماً إلى التوحيد والأخلاق ، وشيء من العبادة ، يجمع الناس على التوحيد ، ويفرقهم عليه حتى وصفته الملائكة أنَّه «فرَّق بين الناس»[1]

آصرة التجمع :

قال سيد رحمه اللَّه :

« ومن ثَمَّ ، لم يكن بدٌّ أن تتمثل القاعدة النظرية للإسلام - أي العقيدة - [2] في تجمُّع عضوي حركي منذ اللحظة الأولى ، تستهدف رد الناس إلى **ألوهية** اللَّه وحده ... ربوبيته وقوامته وحاكميته وسلطانه وشريعته ... » .

ثم قال : « وبعد : فإنَّ الإسلام وهو يبني الأمة المسلمة على هذه القاعدة ، وفق هذا المنهج ... يجعل **آصرة هذا التجمُّع هي العقيدة** »

وقال « لأنَّ وجودَ المجتمع المسلم لا يتحقق إلّا بهذا » [3]

ثم ماذا ؟ :

ثم بعد ذلك ، يُجتمع على العلم ، والعمل ، والعبادة ، والسياسة ، والجهاد ، والزهد ، كلٌّ حسب ترتيبه الشرعي ، وكلٌّ حسب اختصاصه

فهي تعطي كل ذي حق حقه ، وكل ذي حكم حُكْمَهُ من حيث الأهمية ، والأولوية ، والترتيب

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٩/٨ و ١٤٠) و (فَرْق) بتسكين الراء أو تشديدها مع الفتح

(٢) هذا من كلامه رحمه اللَّه واعلم أن هذا مشروط بدفع الحزبية

(٣) « المعالم » (ص ٥٠)

ففي حديث معاذ حين أرسله رسول الله ﷺ إلى اليمن ، أرسله داعية ومعلماً ، ورتّب له الأولويات ، وبيّن له الطريقة المثلى في تجميع الناس ودعوتهم ؛ فقال له ﷺ :

« إنَّك تأتي قوماً من أهل الكتاب ، فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلّا اللّه وأني رسول اللّه ، فإنْ هم أطاعوا لذلك ، فأعلمهم أنَّ اللّه افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة ، فإنْ هم أطاعوا لذلك ، فأعلمهم أنَّ اللّه افترض عليهم صدقةً تؤخذ من أغنيائهم فترد في فقرائهم ، فإنْ هم أطاعوا لذلك ، فإيّاك وكرائم أموالهم ، واتّق دعوة المظلوم فإنَّه ليس بينها وبين اللّه حجاب » [1].

فجعل ﷺ الأولويّة ، التي ليس قبلها ولا بعدها أولويةٌ هي « التوحيد » ، ثم القيام بالعبادات ، وهو ما يُعبّر عنه : بتصحيح العقائد ، وإصلاح العبادات .

التوازن المطلوب :

إن على المسلم العاقل المتزن أن يراعي القواعد الدينية : في الإيمان والعمل والدعوة والمنهج .. فلا يقدم الفروع على الأصول ، ولا العبادات على الإيمانيات ولا الجزئيات على الكليات ، بل يعطى كل ذي حق حقّه ، حسب منهج الأنبياء في ذلك

ومعظم الناس في هذا - للأسف الشديد - على غير هدى :

فمنهم من لا يفرق بين أصل عقدي أو منهجي ، وبين خلاف فقهي ، ولا يفرق بين ركن وسنة ، ولا بين صغيرة ولا كبيرة ، ولا كليّة ولا جزئية ، فمنهم من يفرط بالتوحيد على حساب التجميع ، وبعضهم يتفرقون في سنة ،

(١) البخاري (رقم ١٤٩٦) ، ومسلم (١/٥٠)

ويتهاجرون في خلاف معتبر، وآخرون يفسدون الأخوة ، بحزبيّة مصنوعة أو عصبيّة ممقوتة لرجل أو بلد أو... يوالون على هذا ويعادون عليه ، غير مبالين بالأولويات ، وبمنازل الأحكام التي قررها الشرع ، فاقدين بذلك للتوازن الشرعي المطلوب نسأل اللّه الهداية والسلام

علّة موهومة :

لما عبد بنو إسرائيل العجلَ ، وجاءهم موسى عليه السلام وأخذ بلحية أخيه ، اعتذر له هارون قائلاً :

﴿ يا ابن أمّ لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي إنّي خشيت أن تقول فرّقت بين بني إسرائيل ولم ترقُب قولي ﴾ [طه:٩٤]

وكان رأي هارون عليه الصلاة والسلام ، أن يترك بني إسرائيل على ما هم عليه من عبادة العجل انتظار رأي موسى عليه الصلاة والسلام ، وخشية أن يفرق بين بني اسرائيل ، فعاتبه موسى أشد العتب ، فإن تفريق الناس بالتوحيد ، خير من بقائهم على الشرك مجتمعين

وهذه هي العلّة نفسها التي يتعلّل بها كثير من الناس اليوم

لا تفرق على سنّة أو واجب :

وأما دليل عدم الاختلاف والتفرّق على السنن والواجبات :

فهو ما كان يحدث من خلاف بين الصحابة في مثل هذه المسائل ، فكانوا لا يتنازعون فيها ، ولا يتفرقون لأجلها ، ولا يوالون ولا يعادون عليها : فقد اختلف الصحابة رضوان اللّه عليهم في غزوة بني قريظة ، في واجبٍ

من أعظم الواجبات ، ألا وهو الصلاة ووقتها ، واختلفوا في موجبات الوضوء ، وفي الفرائض ، ومع ذلك كله لم يتفرقوا

واختلفوا في الحجاج ، في إيمانه وكفره ، وفي حكم الخروج عليه ، واختلفوا في غلاة القدرية ، في كفرهم وإيمانهم ، وفي حكم الخروج على أئمتهم وعزل السلف بعضهم بعضاً عن الولايات ومع ذلك كله ؛ لم يتقاطعوا ، ولم يُشهر بعضهم ببعض

وتنازعوا في فهم بعض الآيات فقال لهم ﷺ :

« اقرؤوا القرآن ما ائتلفت عليه قلوبكم ، فإذا اختلفتم فقوموا » [1]

واختلفوا في قضايا كثيرة ، ومع هذا كله ، لم يرم أحدُ الطرفين الآخرَ بالابتداع ، ولا نسبوا بعضَهم لفرق الضلال ، ولا تفرقوا لذلك ... وقاعدتهم العظيمة في ذلك :

إذا حسنت النيات ، وصح التأصيل ، فلا مشاحة في التمثيل

وهذا كلُّه لا يُنافي البحثَ العلميَّ ، والتحقيقَ الفقهيَّ ، الَّذي يأخذُ الرَّاجحَ ويردُّ المرجوحَ ؛ ويبين الخطأ من الصواب ، ضمنَ الإطارِ الأَخويّ ، وفي دائرة التناصح تحت ظل الكتاب والسنة وفهم السلف

وجوب المفارقة :

وأما دليل المفارقة على المنهاج ، فما كان عليه سلفنا الصالح من الصحابة وأتباعهم من مفارقة مَن خالفهم في المنهاج فضلاً عن العقيدة ، والتبرؤ منهم على رؤوس الأشهاد ، وقد ذكرنا في الفصول السابقة ما يغني عن التكرار ، كتبرئهم

(١) البخاري (رقم ٥٠٦٠ و ٥٠٦١) ، ومسلم (٤/٢٠٥٣) ، وغيرهما

من الخوارج والمعتزلة والقدرية .

وبهذه الصفة - صفة الاجتماع على التوحيد والمنهاج والتفرق عليهما يدرك العاقل :

من هي الجماعة التي اتصفت بهذه الصفة ؟

آلتي آلت على نفسها الدعوة للتوحيد ، ومنهج السلف ، والانتصار لهما ، أم التي أُسُّها : جمّع جمّع ... فلا يضرُّها أن تجمع في صفوفها من يقع في شرك الألوهية .. من عبادة الأولياء والقبور ، أو مداهنة الكفر والطاغوت ؟؟

ولا تفرق بين من ينكر صفات اللَّه عزَّ وجل : كالعلو ، والوجه ، وغير ذلك من صفات الخالق سبحانه ، وبين مَن وجّه وجهه للذي فطر السماوات والأرض بصفاته التي أثبتها ، وأسمائه التي ذكرها .. كل ذلك عندهم سواء

وهل هي التي منهاجها : منهاج أبي بكر وعمر ، أم التي اخترعت منهاجاً من بنات أفكارها ، ورسمت طريقاً من آراء قادتها ؟

فتجد في صفوفها من يلعن أبا بكر وعمر ... بل ويكفّرهما ... وتجد فيها المعتزلي الذي يرد النصوص بعقله ، وفيها من ينادي بالتآخي بين الأديان السماوية ، وفيهم من يشارك الطاغوت في الحكم والظلم

كل ذلك بدعوى تجميع المسلمين ، وتكثير سوادهم !! وهذه هي الغثائية التي حذّر منها رسول اللَّه ﷺ ، والتي كانت وراء نكبات المسلمين :

« توشك الأُمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها ، فقال قائل : من قلَّة نحن يومئذ ؟ قال : بل أنتم يومئذ كثير ، ولكنكم غثاء كغثاء السيل ، ولينزعنَّ اللَّه من صدور عدوكم المهابة منكم ، وليقذفنَّ في قلوبكم

الوهن ، قيل : وما الوهن يا رسول الله ؟ قال : حب الدنيا ، وكراهية الموت » [1]

فالجماعة التي اتصفت بهذه الصفة : هي الجماعة التي تجد جميع أفرادها على عقيدة الصحابة ، وعلى منهج واحد ، هو منهج السلف ، في أي زمان كانوا ، وفي أي مكان وجدوا .. لا تتلوّن عقيدتهم حسب الزمان ، ولايتبدل منهجهم حسب المكان

من صفات المخالفين :

ويخرج من صفة الطائفة المنصورة هذه ، « **الاجتماع على التوحيد والمنهاج ، والافتراق عليهما** » ، كلُّ من تجمع على فكر معين ، أو تحزب على رجل معين أو على بلد معين ، أو على نسب معين .. يجتمعون عليه ، ويفترقون عليه ..

وهؤلاء الذين يكون أسّ تجمعهم على جزء من الدين كالفقه ، أو السياسة ، أو الجهاد ، سرعان ما يذوبون إذا ما انتهى محور تجمعهم ، وكم من جماعة فشلت إذ فشل قائدها ، وكم من جماعة انتهت إذا ما انتهى مؤسّسها

قال شيخ الإسلام رحمه الله :

« ليس لأحد أن ينصّب للأمة شخصاً يدعو إلى طريقته ، ويوالي ويعادي عليها ، غير النبي ﷺ ، ولا ينصب لهم كلاماً يوالي عليه ، ويعادي عليه ، غير كلام الله ورسوله ﷺ ، وما اجتمعت عليه الأمة ، بل هذا من فعل أهل البدع ، الذين

(١) أبو داود (١١١/٤) ، وأحمد (٢٧٨/٥) وسنده صحيح

ينصّبون لهم شخصاً أو كلاماً يفرّقون به بين الأمة » [1]

وقال رحمه الله :

« كل ما خرج عن دعوى الإسلام والقرآن ، من نسب أو بلد ، أو جنس أو مذهب أو طريقة ، فهو من عزاء الجاهلية » [2]

ومعنى قوله : « يجتمعون عليه » ، أي : من سلّم لهم بفكر صاحبهم ومذهبه ، جمعوه معهم ، وعدّوه منهم ، ولو كان على ما كان عليه ، من المخالفات الشرعية ، كترك بعض الواجبات ، بل حتى لو خالف في كل شيء غير فكر صاحبهم - كمخالفته للعقيدة الصحيحة ، أو المنهاج القويم .. فالمهم - عندَهم - أن يلتقي معهم على فكر صاحبهم

ومعنى قوله « يفترقون عليه » أي : إذا خالف المرء قائدهم أو زعيمهم ، فارقوه ، ومن صفوفهم فَصَلُوه ، ولو كانت مخالفته بناءً على أدلة شرعية ، وكان من أعلم العلماء ، وأتقى الصلحاء

ومن غريب صفات المخالفين للطائفة المنصورة في هذه الصفة ، اختلافهم فيما بينهم في العقيدة والمنهج ، فتجد عقائدهم تتلون بتلون البلدان ، ومناهجهم تتغير بتغيير السلطان ، ففي بلد تجد هذه الجماعة تحارب حزباً معيّناً ، وفي الوقت عينه ، تجد هذه الجماعة نفسها ، تحالف أو تثني على الحزب نفسه في بلد آخر .. وعقيدته واحدة ، وضلاله واحد ، فما الذي يجمعهم إذن .

---

(١) « مجموعة الفتاوى » (٢/٢٤٠)

(٢) « اقتضاء الصراط » (١٧) .

وباختصار :

يخرج من صفة الطائفة المنصورة هذه ، كلُّ من تجمَّع على غير عقيدة السلف ومنهاجهم ؛ كأن يتجمعوا على السياسة ! أو على إسقاط حاكم ! أو على رجل ! أو على جهاد فحسب ! أو على أي أمرٍ آخر !

واللَّه المستعان وإليه ترجع الأمور

الصفة الثالثة :

الشمولية الدعوية

إن من أبرز صفات الطائفة الناجية ، التي تُميّزها عن غيرها من الطوائف ؛ شمول دعوتها ، إلى الإسلام ، الناس كافّة ، فالطائفة الناجية هي التي تشمل دعوتُها كلّ عباد اللّه ، فلا تخص طبقة دون طبقة ، ولا فئة دون فئة .. هكذا كانت دعوة الرسل ، وهكذا كانت دعوة رسولنا ﷺ ، تشمل الغني والفقير ، والعظيم والصعلوك، والشريف والوضيع ، والكبير والصغير، والبر والفاجر ، والحر والعبد ، والبدوي والحضري ، والعربي والعجمي ، والرجال والنساء ، والشيوخ والولدان

وعلى تعبير إخواننا المعاصرين :

تشمل المثقف والعامي ، والمتعلم والجاهل ، والجامعي والشارعي [1]، والموظف والعامل ، والمدني والعسكري ، فهؤلاء كلهم ، كانوا يجلسون عند رسول اللّه ﷺ في مجلس واحد ، لا يفرق بينهم نسب ولا منزلة ، ولا علم ولا جاه ، ولا غنى ولا فقر ، ولا بلد ولا مصر ، ولا حزبية ابتدعوها ما أنزل الله بها من سلطان

قال تعالى :﴿ **وما أرسلناك إلّا كافّة للناس بشيراً ونذيراً ولكنّ أكثر الناس لا يعلمون** ﴾ [سبأ:٢٨]

(١) الشارعي : تعبير مبتدع : أي جوال الشوارع الذي لا دراسة له ولا عمل !

فكان أشرف الناس بعد رسول الله ﷺ بل بعد الأنبياء : أبو بكر الحرُّ الشريفُ العربي ، يجلس بجوار بلال العبد الحبشي ، وبجوار الغلام ابن عباس رضي اللَّه عنهم جميعاً

وكان أشدَّ الناس في اللَّه عمر رضي اللَّه عنه ، يجلس مع أضعف الناس .

وكان أتقى الناس بعد رسول اللَّه ﷺ - من مثل العشرة المبشرين بالجنة - يجلس مع من وقع منهم الكبائر كحاطب إذ تجسَّس على المسلمين ، وماعز إذ زنى ، وابن نعيمان إذ شرب الخمر

وكان أذكى الناس ، يجلس مع من لم يقدر معلمُ البشرية ﷺ أن يعلمه الفاتحة [1] ، رضي اللَّه عن الجميع

من أدلة ذلك :

قصة ابن أم مكتوم الأعمى رضي اللَّه عنه ، وهي أشهر من أن تذكر ، وهو الذي نزل في حقه ﴿ **عَبَس وتولّى أن جاءه الأعمى ... أما من استغنى فأنت له تصدى . وما عليك ألّا يزّكّى . وأمّا من جاءك يسعى وهو يخشى فأنت عنه تلهّى كلا** ﴾ .

أي : الذي أعرض عن الدعوة ، وَتَلقِّي العلم ، واستغنى بما عنده من المال والجاه والولد تصغي إليه ، وتنشغل به ، عن الذي جاء يطلب العلم ، ويسعى للهداية .

---

(١) انظر سنن أبي داود (رقم ٨٣٢) ، والنسائي (١٤٣/٢) ، وأحمد (٣٥٣/٤) ، وابن حبان (١٤٨/٣) ، والحديث حسن لغيره

قال ابن كثير رحمه الله عند قوله تعالى : ﴿ **كلا إنَّه تذكرة** ﴾ :
« الوصية في إبلاغ العلم بين شريفهم وخادِمِهم »

قلت : وفي هذا تنبيهٌ عظيمٌ على أن لا ينشغل المسلم بدعوة الكفار إلى الإسلام ، عن تعليم أدنى المسلمين وتربيتهم

فكيف بالذي ينشغل بالكلام عن الكفار ، عن تربية المسلمين ، وتعليمهم ، بل يستهزىء ويصدُّ الناس عن ذلك ؟!

ولا يعني هذا ؛ عدم معرفة سبيل المجرمين ! فهذا شيء ... والانشغال عن تربية المسلمين بالكفار شيء آخر

قال القرطبي : « ﴿ **وأمّا من جاءك يسعى** ﴾ : يطلب العلم للَّه »[1].
ولذلك قال سبحانه بعدها : ﴿ كَلّا ﴾ .

أي : لا تَعُدْ إلى هذا مرة أخرى ، ولا تفرّق بين الناس في شأن الدعوة والتبليغ .
ومنه تعلم ؛ خطأ الذين يتقوقعون بعضهم على بعض ، ويغلقون الأبواب على أنفسهم ، مخالفين بذلك هدي نبيهم ﷺ

الصدّ عن العلم سبيل الضالين :

وعلى هذا ؛ فالذين يصدُّون الناس عن طلب العلم ، وحضور مجالس العلماء ، أو يشغلونهم عن ذلك بما لا ينفعهم في دينهم ، ودنياهم ، وآخرتهم، ليسوا في هذا ، من الطائفة المنصورة في شيء ، بل هم أعداء لها

---

(١) « التفسير » (٢١٥/١٩)

فليحذر المسلم أن يكون في صفوفهم ، حتى لا يصيبه وعيد اللَّه عزَّ وجل : ﴿ كلا إنَّها تذكرة ﴾ .

قال القرطبي : ﴿ كلا ﴾ كلمة ردع وزجر ، أي : لا تفعل بعدها مثلها [1]

وإذا تأمل العاقل خالنا ، عرف :

كم نعبس في وجوه إخوان لنا من العلماء والدعاة الأتقياء ولا ذنب لهم ، إلّا أنَّهم ليسوا في حزبنا ، ولم ينتسبوا إلى طائفتنا ؟! ويا ليت المسألة تنتهي إلى حد العبوس ، إذن لهان الخطب ، وسهل الأمر ! ولكنها تجاوزت حد البهتان والافتراء

وكم نحن نخصّ دعوتنا بأناس دون أناس ، وبطبقة دون طبقة ، مخالفين بذلك كتاب ربنا ، وسنة نبينا ﷺ

﴿ **وما أرسلناك إلّا كافَّةً للناس بشيراً ونذيراً** ﴾ [سبأ:٢٨]

وما نعلم نبياً من أنبياء اللَّه ، خصّص دعوته أو علمه بأناس من قومه دون آخرين ، ولا فعل هذا أصحابه رضوان اللَّه عليهم عندما فتحوا البلاد ، وهدى اللَّه على أيديهم العباد ، ولما طلب كفارُ قريش تخصيصَ مجلس لهم دون المساكين ، أنزل اللَّه تعالى :

﴿ **ولا تطرد الذين يدعون ربّهم بالغداة والعشي يريدون وجهه** ﴾ [الأنعام:٥٢]

وفي « صحيح مسلم » أنَّ أبا الطفيل قال : كنت عند علي بن أبي طالب ،

---

(١) « قواعد معرفة الحق » ، « قاعدة : الحق مقدم على المصالح » وهو كتاب لنا نسأل الله عزَّ وجلَّ أن ييسرَ إتمامه

فأتاه رجل فقال :

ما كان النَّبي ﷺ يُسرُّ إليك [وفي رواية : « أحصَّكم رسول الله ﷺ بشيء »] ؟ قال : فغضب وقال : ما كان النَّبي ﷺ يُسرّ إليَّ شيئاً يكتمه الناس ، [وفي رواية : « ما خصّنا رسول اللَّه ﷺ بشيء لم يعمّ الناس كافة] غير أنَّه قد حدّثني بكلمات أربع ، قال : فقال : ما هن يا أمير المؤمنين ؟ قال : قال : « لعن اللَّه من لعن والده ، ولعن اللَّه من ذبح لغير اللَّه ، ولعن اللَّه من آوى مُحدثاً ، ولعن اللَّه من غيَّر المنار » [1]

بل حذّر رسول اللَّه ﷺ من الوليمة المخصّصة ، بطبقة دون طبقة فقال : « شر الطعام طعام الوليمة ، يدعى إليها الأغنياء ويترك المساكين » [2]

هذا حكمُ من خص بطعامه طبقة دون طبقة .. فكيف بمن يخصص دعوة أو علماً بقوم دون قوم ؟!

إنَّ الحزبيةَ مرفوضةٌ في دين اللَّه حتى في الطعام ، وحتى في القرآن

لا تسويغ مع النص :

واعلم أنَّنا مهما قدَّمنا من مسوِّغات وتأويلات ، وأعذار في جواز التخصيص فلن تكون هذه الأعذارُ مقبولة ، ذلك ؛ لأنه ما خالف محالٌ إلّا سوّغ واعتذر

---

(١) مسلم (١٥٦٧/٣) وغيره

(٢) مسلم (١٠٥٥/٢) .

فما خالف آدمُ إلّا وله تأويل :

﴿ **وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلّا أن تكونا مَلَكين أو تكونا من الخالدين** ﴾ [الأعراف:٢٠]

وما خالف أصحابُ أُحُدٍ - إذ خالفوا - إلّا ولهم مسوغ يرونه .

وما حصل من إراقة دماء مئات الألوف من المسلمين ، وتيتّم أطفالهم من لدن صدر الإسلام إلى قتال الأفغانيين والصوماليين بعضهم بعضاً؛ إلّا بمسوّغات وتأويلات ..

فليحذر الذين يخصّصون دعوتهم ، ويُغلقون أبوابهم ، بتأوُّلاتٍ دون تأوُّلات آدم عليه السلام بكثير ، وأعذار دون أعذار سيد الخلق ﷺ فيما عاتبه فيه ربّه ، وقد نزل من القرآن ما نزل في معاتبته ، وهو أسدّ الناس رأياً ، وأخلصهم نيّة ، وأقومهم سبيلاً ﷺ

﴿ **عبس وتولى .....** ﴾ ..

﴿ **عفا الله عنك لم أذنت لهم** ﴾ [التوبة : ٤٣] .

﴿ **لولا كتابٌ من الله سبقَ لمسّكم فيما أخذتم عذابٌ عظيمٌ** ﴾ [الأنفال:٦٨]

وإذا كان هذا في حقه ﷺ إذ اجتهد ولم يصب ما يريده اللّه ، وإذاكانَ ذلك في حق أصحابه .. وأعذارهم أعذار شرعية واضحة بيّنة ... فما ندري ما ينزل بنا، ونحن نتعمد المخالفة بأعذار هي نفسها أعذار قبيحة ، وذنوب واضحة ، ومبررات باطلة ، كالحزبية والسرية ، والتنظيم والبلدية ، والطبقية العلمية [1] ،

(١) الطبقية العلمية : الشهادات وغيرها ، والبلدية : نسبة للبلد

وغير ذلك !!!

مع التنبيه على أن اجتهاده ﷺ وأصحابه ، إنما كانَ في غياب النص ، ونتائج الاجتهاد نتائج ظاهرها خير ، واجتهادات بعض أهل زماننا - إن كانَ أهلاً للاجتهاد - فضلاً عن أنها مخالفة للنصوص ، فنتائجها ؛ ظاهرها وباطنها الفساد والشر ، لأنَّها سبّبت الخلاف بين الأمة ، والشقاق بين المسلمين ، والنكبات التي حلت في ديارهم .

ولا يستبعد أن يكون من أسباب الكوارث التي حلّت ببعض الجماعات الإسلامية ، تلك المخالفات التي يرتكبونها باسم الحزبية ، وباسم مصلحة الدعوة ، وباسم الاجتهاد ، وغير ذلك .

وأخيراً :

إن شمول الدعوة الناس جميعاً ، على مختلف انتماءاتهم ومستوياتهم هو من صفات الطائفة المنصورة ، وإن التخصيص باطل ، وهو نوع من الحزبية المرفوضة .

وعليهِ ؛ فإنَّ الجماعة أو الطائفة التي تخصِّص دعوتها في صعيد دون صعيد ، وفي طبقة على حساب طبقة ، وتحّجر الدعوة ، وتغلق على نفسها الأبواب ، ليست في هذا من الطائفة المنصورة في شيء .

واللّه الهادي سواء السبيل .

من مفاهيم الطائفة المنصورة

لا شكَّ أنَّ ما قُدّم من الأصولِ والصفاتِ أمرُه معلومٌ ،

فالأصلُ: ما تُبنى عليه الجماعة ، والخلل به خلل في الجماعة

والصفة : هي ما تُميِّزُ به الجماعة المنصورة عن غيرها .

وأما المفهوم ، فهو : ما يفهم من الكتاب والسنة في تحليل الأحداث ، وإصلاح الواقع وتغييره ، وسبل النهوض بالأمة

وهذه التسميات والاصطلاحات ، إنما هي لأجل التسهيل والدراسة ، وإلّا فهي عناصر مترابطةٌ ، وقواعد متشابكةٌ متداخلةٌ ، مبنيٌّ بعضها على بعض ، لا تكاد تستطيع أن تفرق بينها ، ولا أن تجد حدوداً فاصلة تحدُّها

واعلم أنَّه لا مشاحَّة في الأسماء والاصطلاحات - كما يقولون - ، بشرطِ أنْ يَكونَ المضمون صحيحاً ، والتقرير سليماً ، والأدلة مستوفاة

المفهوم الأول :

كل ما أصابنا فبما كسبت أيدينا

اعلم - رحمنا الله وإياك - أن كل ما أصابنا وما يصيبنا وما سيصيبنا ، من مصائب وكوارث ، وفقر وجوع وذلٍّ وظلم ، وهزائم وسجون ، وقهر واحتلال ، ونهب لأموالنا ، وهدم لديارنا ، وفشل في رد كيد أعدائنا ، إنَّما هو كله بما كسبت أيدينا ، ومن تقصيرنا في حق ربنا ، ومن إعراضنا عن العمل بشريعة ديننا ، قال تعالى :

﴿ **وما أصابكُم من مصيبةٍ فبما كسبَت أيديكُم** ... ﴾ [الشورى:٣٠]

﴿ **وما أصابكَ من سيِّئةٍ فمن نَفسك** ﴾ [النساء:٧٩]

قال جمهور السلف : « من نفسك : بذنبك »

وقال قتادة : « عقوبة لك يا ابن آدم بذنبك » (١)

ومجيء « مصيبة » و « سيئة » نكرةً في سياق النفي ، تفيد عموم المعصية ، وعموم السيئة بلا استثناء ، صغيرة كانت أو كبيرة ، خارجية كان مصدرها أو داخلية

---

(١) ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية (٥٢٨/١)

قال ﷺ :

« ما اختلجَ عِرق ولا عين إلّا بذنب ، وما يدفع اللّه عنه أكثر » [1]

وما حصلَ في أحد من هزيمة عُلِّق بما كسبت أيدي المؤمنين ، قال تعالى:

﴿ ... حتَّى إذا فَشِلتُم وتنازَعتُم في الأمرِ وعَصيتُم ﴾ [آل عمران:١٥٢] .

وقال : ﴿ أوَ لَـمَّا أصابتكُم مُصيبةٌ قد أَصَبتُم مثليها قلتُم أنَّى هذا قُل هُوَ مِن عند أنفسكم إنَّ الله على كل شيءٍ قدير ﴾ [آل عمران:١٦٥]

وما حدث في حُنين من التولِّي ، أُنيط بما كسبت أيديهم ، قال تعالى :

﴿ ويومَ حُنينٍ إذْ أعجبتكُم كثرتكُم فلم تُغنِ عنكم شيئاً وضاقَت عليكم الأرضُ بما رحُبَت ثمَّ ولَّيتم مدبرين ﴾ [التوبة:٢٥]

كيفَ يكون الجزاء ؟؟!!

هل ينزل ملائكة من السماء تجلد ... ؟!

كلا .. إنَّه المرض والجوع ، والتشريد والتقتيل على أيدي الأعداء ، وغير ذلك مما نراه قد نزل على الساحة الإسلامية .

قال ﷺ :

« المصائب والأمراضُ والأحزانُ في الدنيا جزاء » [2].

---

(١) الطبراني في « الصغير » (١٠٣/٢) ، وصححه شيخنا في « صحيح الجامع » (٥٥٢١) .

(٢) سعيد بن منصور في « سننه »(رقم ٧٠٠) و « حلية الأولياء » (١١٩/٨) ، وصححه شيخنا في« صحيح الجامع » (٦٧١٧)

وقال ﷺ :

« خمس بخمس ، ما نقض قومٌ العهد إلّا سُلِّط عليهم عدوّهم ، وما حكموا بغير ما أنزل اللّه إلّا فشا فيهم الفقر ، ولا ظهرت فيهم الفاحشة إلّا فشا فيهم الموت ، ولا طفّفوا المكيال إلّا مُنعوا النبات ، وأخذوا بالسِّنين ، ولا منعوا الزكاة إلّا حُبس عنهم القطر » [1].

التحليل الصحيح :

ولما هدم اللّه سدَّ مأرب ، لم يُرجع ذلك إلى الأسباب المادية ، رغم وجودها [2] ، بل جعل سبب ذلك إعراضهم عن دينهم ، وظلمهم أنفسهم ، وأناط الفعل بنفسه ، ليؤكّد سبحانه : أنَّه هو الذي فعل بهم هذا ، لا الأسباب المادية البحتة ، قال سبحانه :

﴿ **فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العَرِم** ﴾ [سبأ:١٦]

﴿ **وظلموا أنفسهم فجعلناهم أحاديثَ ومزّقناهم كل ممزَّقٍ إنَّ في ذلك لآياتٍ لكلِّ صبَّار شكور** ﴾ [سبأ:١٩]

وكذلك لما هُزِم المسلمون في أُحُد ، وفي أول معركة حُنَين ، لم يرجع الله ذلك إلى أسباب عسكرية ، رغم وجودها ، ولكنه - سبحانه - أرجع ذلك إلى ما كسبت أيديهم .

ولو أردنا تتبع « الباء السببية » في عقوبة الخلق في كتاب اللّه تعالى ، لطالَ بنا المقال ... والعاقل يكفيه الدليل والدليلان

(١) الطبراني في « الكبير » (١٠٩٩٢/١١) ، وصححه شيخنا في « صحيح الجامع » (٣٢٤٠)

(٢) إنَّنا لا ننكر الأسباب المادية التي خلقها اللّه ، ولكن ننكر الغفلة عن سببها

أما المعاند فلو جئته بمئةِ دليل ، لأوّل النصوص ، ولوى أعناقها ، وحرف المقصود ، كما فعلت يهود من قبل !!

﴿ولئن أتيت الذين أُوتوا الكتابَ بكلِّ آيةٍ ما تبعوا قبلتك﴾ [البقرة:١٤٥] .

لوازم هذا المفهوم :

وبناء على هذا المفهوم المهم ، كان أفراد الطائفة المنصورة الأولى ، يُرجعون كلَّ مصائبهم وهمومهم وأمراضهم الفردية والجماعية إلى ما كسبت أيديهم .

حتى إذا شاكت أحدَهم شوكةٌ ، أو أصابته سَعلةٌ ، أرجع ذلك إلى ذنب فعله ، أو إثم اقترفه ، عملاً بقوله ﷺ :

« لا يصيب رجلاً خدشُ عودٍ ، ولا عثرة قدم ، ولا اختلاج عرق ، إلّا بذنب ، وما يعفو اللَّه أكثر » (١)

قال ابن كثير عند قوله تعالى :

﴿ فليَحذر الذين يخالفون عن أمره أن تُصيبَهم فتنةٌ ﴾ الآية [النور:٦٣]

« أي : عن أمر رسول اللَّه ﷺ وهو : **سبيله ، ومنهاجه ، وطريقته ، وسنته وشريعته ...** »

﴿ أو يصيبهم عذابٌ أليم ﴾ [النور:٦٣]

« أي : في الدنيا بتقتيل ، أو حدّ ، أو حبس ، أو نحو ذلك » (٢).

---

(١) رواه ابن جرير (٩٩٦٩/٨) وعزاه السيوطي في « الدر المنثور » (٥٩٧/٢) لعبد بن حميد ، وله شواهد كثيرة أُنظرها في « صحيح الجامع » (٧٦٠٨-٧٦٠٩) ، (٥٦٣٩ - ٥٦٣٤ - ٥٦٩٤)

(٢) « تفسير ابن كثير » (٣١٩/٣)

ومن روائع لفتات ابن عباس رضي الله عنه ، في التفسير عند قوله تعالى : ﴿**قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم أو من تحت أرجلكم ...**﴾ [الأنعام : ٦٥]

قال : أما العذاب من فوقكم فأئمّة السوء ، وأما العذاب من تحت أرجلكم فخدم السوء ، وفي رواية :سفلتكم »[١]

وقال ابن خيرة - وكان من أصحاب علي رضي اللّه عنه - :

« جزاء المعصية : الوهن في العبادة ، والضيق في المعيشة ، والتعسُّر في اللذة ، قيل : وما التعسُّر في اللذة ؟ قال : لا يصادف لذة حلال إلّا جاءه من ينغّصه إياها » [٢].

وذكر ابن الجوزي أنَّ رجلاً نظر إلى غلام نصراني حسن الوجه ... فقال له الإمام أحمد : أيش وقوفك هنا ؟ قال : يا عم ، تُرى هذه الصورة تُعذَّب في النَّار ؟

فضرب بيده بين كتفه ، وقال : لتجدنَّ غِبَّها ولو بعد حين ، فقلت : فوجدت غبها بعد أربعين سنة ؛ أُنسيت القرآن [٣]

هل للمعاصي أثر خفي :

ومما يلفت النظر حقاً ، ويستدعي التأمل والدراسة ، ما للذنوب من أثر عميق في النفوس والمجتمع والأمة ؛

---

(١) أخرجه ابن جرير (٤١٨/١١) من طريقين عن ابن عباس رضي الله عنه .

(٢) عزاه ابن كثير عند قوله تعالى : ﴿ فأرسلنا عليهم سيل العرم ﴾ (٥٣٣/٣) لابن أبي حاتم .

(٣) « تلبيس إبليس » (٢٧٦)

إذ أن لها أثراً خفياً ، وسُمّاً ناقعاً ، تفسد الأخوة ، والناس لا يشعرون وتفرّق الصف ، والناس لا يعلمون .

ومن غريب أثر المعاصي الخطير ، وسريان سمّها الخفي ، وخبث كيدها القوي ، ما أشار إليه رسول الله ﷺ بحديثين جديرين بالتأمل :

الأول : قوله ﷺ : « نزل الحجر الأسود من الجنة ، وهو أشد بياضاً من اللبن ، فسوّدته خطايا بني آدم »[1]

الثاني : قوله ﷺ :

« ما توادَّ اثنان في الله فيفرق بينهما إلا بذنب يحدثه أحدهما»[2]

وفي هذا الصدد - صدد أثر الذنوب - ذهب الإسلام أبعد مما ذكرنا .. ذهب الى إناطة بعض الحوادث الكونية بما كسبت أيدي الناس .. وأن اللّه إنما يرسلها تخويفاً لعباده وتحذيراً ﴿ وما نُرسِل بالآيات إلاّ تخويفا ﴾ ، ولذلك كان الرسول ﷺ يضطرب إذا حدث الكسوف ، ويخاف إذا هبّت الرياح ، ويفزع إلى الصلاة والدعاء ، ويأمر بهما وبالصدقة ، ويقول ﷺ : « إنَّ الشمس والقمر لا ينكسفان لموت أحـــد ولا لحياته ، ولكنهـما من آيات اللّه يخوِّف اللّه بهما عباده ».[3]

---

(١) صحيح : أخرجه الترمذي(٨٧٧) عن ابن عباس ، وقال :« حسن صحيح» ، وفي الباب عن ابن عمر ، وأبي هريرة ، وأخرجه ابن خزيمة (٦٣٧) إلا أنه قال : « أشد بياضاًمن الثلج» ، وصححه المنذري(١٩٤/٢) وشيخنا في صحيح الجامع (٦٧٥٦).

(٢) حديث صحيح لغيره : أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٤٠١) عن أنس ، وأحمد(٦٨/٢) عن ابن عمر ، وأبو نعيم في الحلية (٢٠٢/٥) عن أبي هريرة ، والحديث صحيح بمجموع طرقه ، راجع الصحيحة (٦٣٧)..

(٣) أخرجه البخاري (٢٣/٢) ومسلم (رقم ٩٠١) واللفظ له ، وغيرهما

واقتدى أصحابه رضوان الله عليهم بهذا المفهوم ، فلما رجفت الكوفة في عهد ابن مسعود ، قال : « يا أيها الناس إنَّ الله يستعتبكم فأعتبوه » ، أي : يطلب أن ترضوه فافعلوا مايُرضيه وتجنبوا ما يُسْخِطه .

وزلزلت المدينة على عهد عمر رضي الله عنه ، فقال : أحدثتم .. لئن عادت لأفعلن وأفعلن[1] .

واعلم أنه ليس في هذا إنكار للسنن الكونية ، ولا جحد للأسباب الماديّة العلميّة ، ذلك بأن الله هو الذي خلق هذه الأسباب ورتب عليها أفعالاً ، كالخسوف والمطر والرياح ، وذلك لتخويفنا وابتلائنا والإنعام علينا .. فتنبه لهذا ؛ ولا يخلطنَّ الشيطان عليك الأمر ، ليقذِف في القلب شيئاً ، فكلّ من عند الله ، وكلّ من أمر الله .. فالله هو القائل :﴿ **الشمس والقمر بحسبان** ﴾ ، وهو القائل : ﴿ **وما نُرسِل بالآيات إلاّ تخويفا** ﴾ .

واعلم أن الدين لا يمنع من معرفة بعض السنن الكونية ، كالخسوف وغيره - قبل حدوثها - إن كان ذلك عن طريق العلم الصحيح ، لا عن طريق التكهن وادعاء معرفة الغيب ، وللمسألة تفصيل ليس ها هنا محله

وأوجز ابن القيم هذا المفهوم - ما أصابنا بما كسبت أيدينا - فقال : « فكل نقص وبلاء ، وشر في الدنيا والآخرة ، فسببه الذنوب ، ومخالفة أوامر الرب ، فليس في العالم شرٌّ قط إلّا والذنوب وموجبتها »[2]

---

(١) راجع ابن جرير وابن كثير عند قوله تعالى : ﴿ وما نُرسل بالآيات إلاّ تخويفا ﴾ [الإسراء : ٥٩]

(٢) « المدارج » (١/٤٢٤) ولعل الواو التي قبل « موجبتها» مقحمة ومعنى موجبتها : سببها .

المفهوم المنسي :

ولقد أصبح هذا المفهوم الحق ، الذي يجب أن نربّي عليه جيل الصحوة - مفهوم ما أصابنا بما كسبت أيدينا ، وما أنعم اللّه علينا فبفضله ورحمته - عند كثير من الدعاة والخطباء والوعاظ ، نسياً منسياً ، بل راحوا ينكرون على من يؤكد هذا المفهوم ، بدعاوى باطلة ، وأعذار باردة ، لا وزن لها في الكتاب والسنة !!

وكأنَّ هؤلاء الناس .. لا يفقهون كتاب اللّه عزَّ وجل ، بل لا يقرؤونه،

ولقد عاب اللّه عزَّ وجلّ على من لم يدرك هذا المفهوم ، ووصفهم بالبلادة وسوء الفهم :

قال تعالى :

﴿ **وإن تُصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وإنْ تُصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك قل كلٌّ من عند الله فما لِهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك ...** ﴾ [النساء:٧٨ و ٧٩]

ولفظ ﴿ سيّئة ﴾ في الآية ، نكرة في سياق النفي يفيد العموم ، أيْ : أيُّ سيئة صغيرة كانت أو كبيرة ، فهي بما كسبت يد العبد سبباً ، والحسنة من اللّه فضلاً ، والجميع من اللّه قَدراً ، فمن لم يفهم هذا فهو في « شك وريب ، وقلّة فهم وعلم ، وكثرة جهل وظلم » [1]

---

(١) ابن كثير في تفسيره لهذه الآية (١/٥٤٠)

هو مفهوم فطري :

إنَّ هذا المفهوم ، هو مفهوم فطريٌّ ، قبل أن يكون مفهوماً شرعياً ، فإنَّ الجيوش لا تُغلب إلّا إذا كانت مهلهلة في تنظيمها ، هشَّة في بنيانها .

وإنَّ الإنسان لا يمرض من الداء فحسب ، إلّا إذا كان ضعيفاً في مقاومته ، عليلاً في بدنه .

وإنَّ السدّ لا يهدم من قوة الماء فحسب ، إلّا أن يكون ضعيفاً في تماسكه ، مصدّعاً في بنيانه ، إذ لو كان يهدم من قوتها فحسب ، لما بقي سدٌّ على وجه الأرض .. فتدبر

مثلنا ومثلهم :

إنّ مثل الذين يحمّلون ما أصابهم أنفسهم :

كمثل الطبيب الذي يغذّي الجسم ، ويقوّي مناعته ، ويعمل لوقايته ، حتى إذا جاءه المرض - أيُّ مرض - صدّه ، وفي نحره ردّه

ومثل الذين يحمّلون ما أصابهم غيرهم :

كمثل الطبيب الذي يتحدّث عن الجراثيم وأنواعها ، والأمراض وأخطارِها، ويهمل مداواة الجسم ووقايته ، فتضعف مناعته ، فإذا جاءه المرض - أيُّ مرض - استفحل فيه وأهلكه ، ثم ألقى تَبِعَةَ ذلك على الداء

ومثلنا ومثلهم :

كمثل رجل رأى سيلاً قادماً ، فأنذر قومه ، فقام فريقٌ منهم بصمت يبنون سدّاً ، ويحفرون مجرىً ، ويدعمون بيوتهم ، ويحمون أهليهم .

وأما الآخرون : فقاموا يتحدثون عن قوة السيل ، وعن ارتفاع الماء ومصدره ، وعن قوة تدميره ، وعما فعل بالقرية المجاورة ، وعن ... وعن ... فأشغلهم ذلك عن أهليهم وبيوتهم

فأيُّ الفريقين ، أحق بالأمن إن كنتم تعقلون ؟؟!!

نعم ؛ لو كان بينهم تعاون وترتيب ، وتناصح وتخطيط ، لكان هذا هو المُرام ، وفيه الخير ؛ وأمّا : كل حزب بما لديهم فرحون ! فهي - واللّه - الرزية والبلية

مفاسد مخالفة هذا المفهوم :

ورغم النصوص الواضحات ، والحوادث البيّنات ، في تحميل أنفسنا ما يصيبها ، فلا يزال كثير من الدعاة يُلقون تبعة ما يصيب المسلمين على أعدائهم .. وفضلاً عن أن هذا مخالف للمنهج الرباني ، والهدي النبوي ، فإنَّ فيه مفاسد عظيمة ، ومضار بالغة :

منها :

أولاً : مخالفته للكتاب والسنة في تحليل الوقائع .

فاللّه سبحانه ، ألقى تبعة أُحد وحُنين على المسلمين أنفسهم ، لا على الكفار الذي فعلوا ما فعلوا :

﴿ أولمَّا أصابتكُم مصيبةٌ قد أَصَبتُم مثليها قلتُم أنَّى هذا قل هوَ من عند أنفسكم ﴾ [آل عمران:١٦٥]

بل إنَّ رسول الله ﷺ لما شرع في القنوت بلعن الكفار ، أنزل اللَّه قوله : ﴿ **ليسَ لكَ منَ الأمرِ شيءٌ** ﴾ [آل عمران:١٢٨] فتدبَّر ؟!

و« المتأمل لهذه الآية لا يجد نهياً صريحاً ، وإنما يجد أدبا رفيعاً ، ومنهجاً قويماً في معالجة قضية النصر والهزيمة ، فإن الآية نزلت في سياق أحد ، وما حصل في أحد ، فتأثر المسلمون لما حصل تأثراً بليغاً ، وراح رسول الله ﷺ يلعن بعض الكافرين ويقول : « كيف يفلح قوم فعلوا هذا بنبيهم » ، وحتى لا يعتقد المسلمون أن السبب الأول والرئيي للهزيمة ، هو : هؤلاء الملعونون ، وليست مخالفة الرسول ﷺ والتنازع ؛ أنزل الله : ﴿ **ليس لك من الأمر شيء** ﴾.

ثم ذكر الله بعد ذلك الأسباب الحقيقية الكامنة وراء الهزيمة ،

فقال سبحانه :

﴿ **حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم....** ﴾

فهذه هي الأسباب الحقيقية وراء هزيمتكم ، فلا ينفعكم لعن فلان لجلب نصرٍ ، ولا استبعاد الهداية عن فلان لدفع هزيمة »[1]

ولو كان النصر بكثرة الكلام عن الكفار ولعنهم ، لكان المسلمون المعاصرون أكثر الناس قوة ، وأكثرهم نصراً

ثانياً : فيه تعظيم للكفار في نفوس المسلمين ، وأنَّهم وراء كل مصيبة تحلُّ بالمؤمنين ، مما يزيد هيبة الكفار في نفوس المسلمين رهقاً

---

(١) من كتاب « أحكام القنوت » (ص ٦٧) للمؤلف

وبعبارةٍ أخرى : فيه إضعاف الروح المعنوية للمسلمين ، كقول بعض الخطباء :

« أمريكا تفعل ما تشاء ، ونحن لا نقدر أن نفعل شيئاً » !!

« أعداء الإسلام يلعبون بمقدَّراتنا ، ويتحكمون بمصائرنا » !!

إنَّها - واللَّه - لكلمة كبيرة تهتزُّ من هولها السماوات والأرض .. لا يجد العاقل تعليقاً عليها أفضل من قوله تعالى :

﴿ **كبُرت كلمةً تخرج من أفواههم إن يقولون إلّا كذباً** ﴾ [الكهف:٥]

فإنَّ الذي يتحكّم بمصيرنا ، هو اللَّه وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الأمر ، وله الحكم ، وإليه ترجع الأمور كلها ، لا إلى غيره ؟!؟

فنعوذ باللَّه ممن ركب منابر المسلمين - أو أُركب - وهو لا يُجيد سوى تفخيم العبارات ، وتمطيط الكلمات ، وإنّا للَّه وإنّا إليه راجعون

ثالثاً : دبُّ الوهن واليأس والقنوط في قلوب المسلمين ، فضلاً عمّا هم عليه من وهن ، ويأس ، وضعف في الإيمان !!!

مما يزيد الأمر وهناً على وهن

رابعاً : إضعاف الإيمان باللَّه تعالى ، والثقة به ، والتوكل عليه ، وأنَّه القادر على كل شيء ، وأنَّه القاهر فوق كل شيء .

خامساً : فيه تزكية للنفس ، بمعنى : أنَّنا قد استكملنا شروط النصر ، واستحققنا التمكين ، ولكنا غُلبنا بقوة الكفار ، وشدة بأسهم ، لا بسبب ضعفنا

وتقصيرنا في حق ربنا ، الأمر الذي يدفعنا إلى الأمر التالي ، وهو :

سادساً : إهمال تربية أنفسنا ، ومراجعة حساباتنا ، لأنَّنا اعتقدنا - خطأً - أنَّ المصائب ليست بسببنا ، بل هي بسبب الكفار الذين عجزنا عن مقاومتهم

وإذن ؛ فلا نلتفت إلى أنفسنا ، ولا نصلح أعمالنا ، ولا نسدُّ ثغراتنا ، ولا يزداد قُرْبُنا من اللَّه الذي بيده النصر والتمكين :

﴿ قُل اللهمَّ مالِك المُلك تُؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعزّ من تشاء وتُذلّ من تشاء بيدك الخير إنَّك على كلِّ شيء قدير ﴾ [آل عمران:٢٦]

سابعاً : سوء الظن باللَّه العلي القدير ، وأنَّه لم يُوْفِ بوعده في نصر المؤمنين

إنَّ الاعتقاد بأنَّ الكفار يفعلون كل شيء ، وأنَّهم وراء كل شيء ، وأنَّ بيدهم كل شيء ، وأنَّنا لم نقصِّر في شيء ، يدفع النَّاس - إذن - إلى التساؤل :

أين اللَّه ؟!

أين نصره الذي وعد ؟!؟

وأين قدرته التي لا تُغلب ؟!

وإذا كنا نستحق النصر .. فلماذا لم ننتصر ؟؟!!

وإذا كنا نستحق النصر ولم ننصر :

فإما : أنَّ اللَّه أخلف وعدَه ... أو أنَّه عجز عن نصرنا ، وعن رد قوّةِ الكافرينَ وبأسِهم عنا

وهذا هو سوء الظن ، الذي وقع فيه ضعاف الإيمان في غزوة أحد ﴿ **يظنون بالله غير الحق ظنَّ الجاهلية يقولون هل لنا من الأمر من شيء قل إنَّ الأمر كلَّه لله** ﴾ [آل عمران:١٥٤] .

ولم يكن سوء الظن هذا بمقالهم ، فمن أساء الظن باللَّه فقد كفر ، ولكنَّه كان بلسان حالهم ، ولازم أفعالهم وأقوالهم إذ قالوا : ﴿ **هل لنا من الأمر من شيء** ﴾ ؟ فردَّ اللَّه عليهم بقوله : ﴿ **قُل إنَّ الأمر كلَّه لله** ﴾ .

فأمر النصر بيده .. وأمر الهزيمة بيده .. وأمر القتل بيده .. وأمر المؤمنين بيده .. وأمر الكفار بيده ، وأمر الكون كله بيده .. فلا تظنُّوا باللَّه ظنَّ السوء .. وأنَّه أخلف وعده ولم ينصر رسوله ﷺ .. ولكنكم أنتم الذين أخلفتم وعده .. ونقضتم ميثاقه ، بدليل نصرته لكم أوَّل المعركة .

قال تعالى : ﴿ **ولقد صدقكم الله وعدَه إذ تحسُّونهم بإذنه حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون ..** ﴾ [آل عمران:١٥٢] .

وقال اللَّه لأمثال هؤلاء الذين يظنون أنَّ الكفار يَغْلِبون .. وأنَّ اللَّه لا ينصر رسوله : ﴿ **من كان يظن أن لن ينصره الله فليمدد بسبب إلى السماء ثم ليقطع فلينظر هل يُذْهِبَنَّ كيدُه ما يغيظ** ﴾ [الحج:١٥] .

أي : من كان يظن أن لن ينصر اللَّه دينه ، ولن يؤيد رسوله ، فليشنق نفسه حقداً وغيظاً ، ثم لينظر هل فعله هذا يشفي ما في نفسه من الحقد والغيظ ؟

وهو نوع من أنواع التهكُّم والسخرية بهم[1] .

---

(١) انظر تفسير ابن كثير (٣/٢٢١) ، والقرطبي (١٢/٢١) ، وغيرهم .

ولهذا ؛ فإنَّ إلقاء تَبِعَةِ كل ما يحصل بالمسلمين على الكفار إنَّما هو من سوء الظن باللَّه عزَّ وجلّ .

قال ابن القيم في « الزاد » (٣/٢٣٥) :

« فليعتن اللبيبُ الناصحُ لنفسه بهذا الموضوع ، وليتبْ إلى اللَّه تعالى وليستغفره كل وقت من ظنه بربه ظن السوء ، وليظن السوء بنفسه التي هي مأوى كل سوء ، ومنبع كل شر ، المركبة على الجهل والظلم ، فهي أولى بظن السوء من أحكم الحاكمين ، وأفعاله كذلك ؛ كلها حكمة ومصلحة ، ورحمة وعدل »

قال سيّد في ظلال هذه الآية (١/٤٩٠) :

« ومن الظن غير الحق باللَّه أن يتصوّروا أنَّه سبحانه مُضَيِّعُهم في هذه المعركة التي ليس لهم من أمرها شيء ، واللَّه لا ينصرهم ولا ينقذهم ، إنَّما يدعهم فريسة لأعدائهم » .

وهو القائل سبحانه :

﴿ وَعْدَ الله حقّاً ومَن أصدقُ من الله قيلاً ﴾ [النساء:١٢٢] .

﴿ وما كانَ الله ليعجزَهُ من شيء في السماواتِ ولا في الأرض ﴾ [فاطر:٤٤] .

وقال سبحانه :

﴿ ولا يحسبنَّ الذين كفَروا سبقوا إنَّهم لا يعجزون ﴾ [الأنفال:٥٩] .

قال سيد رحمه اللَّه في « الظلال » (٣/١٥٤٣) :

« والذين كفروا أعجزُ من أن يُعجزوا اللَّه حين يطلبهم ، وأضعفُ من أن يُعجزوا المسلمين ، واللَّه ناصرهم » .

ثامناً : إنَّ هذا يدلُّ على أنَّ الذين ينهجون هذا المنهج ، هم في أنفسهم ضعيفو الإيمان باللَّه ، ضعيفو التوكل عليه سبحانه ، ضعيفو العلم الصحيح - علم الكتاب والسنة - ، فاقدو المنهج القويم - منهج الطائفة المنصورة - ذلك لأنَّهم لم يعرفوا أصولاً أصيلة في الإسلام ، بل هي مسلَّمات شرعية ، وبدهيات عقلية ، لكل من تفقه بالكتاب والسنة ، لا بالصحف والمجلات ، وأخبار الإذاعات ، وجرى وراء المجالس والمظاهرات !!

ثمَّ إن تحميل المسلمين تبعة ما يصيبهم ، لا يعني أبداً تبرئة الكفار وأعداء الإسلام مما يفعلونه بالمسلمين

فهذا أمر ، وذاك أمر آخر لا يدركه إلّا الذين تربَّوا على الكتاب والسنة ، ومنهج السلف الصالح - منهج الطائفة المنصورة -

وإنَّ اللَّه لما علَّق أسباب هزيمة أحد وحنين بالمسلمين ، لا يعني هذا أنَّه - سبحانه - برَّأ الكفار مما فعلوه بالمسلمين

فتدبر هذا ؛ حتى لا يموِّه عليك به

هذه هي بعض مضارّ مخالفة مفهوم : ما يصيبنا إلّا بما كسبت أيدينا

ثمرات الإيمان بهذا المفهوم :

وأما ثمرات الإيمان والعمل به ، فهي كثيرة ، وذات نتائج طيبة ، وثمار يانعة :

الأولى : العمل بمقتضى الكتاب والسنة ، لتكون الرحمة ويكون الفلاح :

﴿ **وأطيعوا اللهَ والرَّسولَ لعلَّكم تُرحَمون** ﴾ [آل عمران:١٣٣] .

﴿ **وإنْ تُطيعوهُ تَهتَدوا ...** ﴾ [النور:٥٤]

فعلَّق - سبحانه - الرحمة والهداية ، بالطاعة

والطاعةُ لا تكون إلّا بالفقه ، والفقهُ لا يكون إلّا بالعلم ، والعلمُ الصحيحُ لا يكون إلّا بِالكتاب والسنة على طريق سلف هذه الأمة

الثانية : الشعور بالتقصير : الأمر الذي يدفعنا إلى الجدّ والاجتهاد في طاعة اللَّه تعالى ، واتباع رسوله ﷺ حتى يحبنا سبحانه ، فإذا أحبنا كتب لنا النصر ، وحقّق لنا التمكين .

ففي الحديث القدسي :

« ما تقرَّب إلي عبدي بشيء أحبّ إليّ مما افترضته عليه ، وما يزال عبدي يتقرّب إليّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ... » (١)

ومقتضى هذا ولازِمُه : وكنتُ دماغه التي يخطط بها هذا الأمر ، ويده التي يرمي بها نحور الكفار ...

﴿ **وما رمَيتَ إذ رمَيتَ ولكنَّ اللهَ رمَى** ﴾ [الأنفال:١٧]

فواللَّه لا يُغلب قومٌ اللَّهُ يحبهم ، وواللَّه لا يهزم قومٌ اللَّهُ حافظٌ لسمعهم ، وبصرهم ، وقتالهم ، ورميهم ، وجهادهم

(١) البخاري (رقم ٦٥٠٢) .

وقال تعالى :

﴿ وَعَدَ اللهُ الذينَ آمنوا منكم وعَمِلوا الصَّالحاتِ ليستخلفنَّهم في الأرضِ ﴾ [النور:٥٥] .

فلم يشترط اللَّهُ على نفسه النصرَ للذين آمنوا فحسب ، بل أتبعها بالذين عملوا الصالحات .

فهل الواجبات التي أوجبها اللَّه علينا ، والسنن التي سنها رسول الله ﷺ، والأخوة في الله ... من الصالحات ..؟

وهل الحزبية وبغض المسلمين وهجر السنن من الصالحات .. ؟!

وهل فعل الصالحات من عوامل النصر .. أم من أسباب الهزيمة .. ؟!

الثالثة : عندما نشعر أنَّ ما أصابنا بما كسبت أيدينا ، نسارع إلى أنفسنا ، فنفتّش فيها عن الثغرات فنسدّها ، وعن التصدّع فنقيمه ، الأمر الذي يقوي الجماعة ، ويشدّ عضدها ، مما يجعلها أشدَّ قوة ، وأشدَّ تماسكاً في وجه أعدائها ، أعداء اللَّه سبحانه .

وهي عوامل عظيمة من عوامل النصر والتمكين

قال تعالى :

﴿ وَلَو أنَّهم فعلوا ما يُوعَظونَ بهِ لكانَ خيراً لهم ﴾ [النساء:٦٦] .

فهو خيرٌ لهم في تعجيل النصر ، وخيرٌ لهم في دنياهم ، وخيرٌ لهم في أخراهم

قال ابن القيم في معرض ذكره الدروس المستفادة من غزوة أحد :

« فمنها : تعريفهم سوء عاقبة المعصية ، والفشل ، والتنازع ، وأنَّ الذي أصابهم إنَّما هو بشؤم ذلك كما قال تعالى : ﴿ **ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسُّونهم بإذنه حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر ..** ﴾ [آل عمران:١٥٢] ، فلما ذاقوا عاقبة معصيتهم للرسول ، وتنازعهم ، وفشلهم ، **كانوا بعد ذلك أشدَّ حذراً ويقظة وتحرُّزاً من أسباب الخذلان** » [(١)].

الرابعة : إضعاف مكانة الأعداء في نفوس المسلمين .. الأمر الذي يدفعنا إلى استصغارهم والشموخ عليهم ، لأنَّهم إنما سُلِّطوا علينا بذنوبنا لا بقوتهم ، وبمعاصينا لا بعدَّتهم ولا بعددهم ، الأمر الذي يقوي الرُّوح المعنوية للمسلمين ، ويشدُّ عزائم المؤمنين فلا يجعل اللَّه لأعدائهم رهبة في نفوسهم ، ولا خوفاً في قلوبهم .

قال تعالى عقب بدر :

﴿ **إذْ يُريكَهُم الله في منامكَ قليلاً وَلو أراكهُم كثيراً لفشلتم ..** ﴾ [الأنفال:٤٣] .

فرفع الروح المعنوية للمسلمين عاملٌ وأيُّ عاملٍ من عوامل النصر .

وانظر إلى طريق السلف في معالجتهم لمثل هذه الأمور على لسان الإمام السلفي ابن القيم رحمه اللَّه تعالى :

« لا تخش كثرتهم فهم همج الوَرى وذبابُـه أتخـاف من ذبّـان » [(٢)] ؟

فاستعظام الكفار ، واستكثارهم ، والحديث عن قوتهم ، أمام جماهير المسلمين ، يضعف النفوس ، ويقوي العدو معنوياً .

---

(١) « الزاد » (٣/٢١٨)

(٢) « القصيدة النونية » ، شرح أحمد بن إبراهيم بن عيسى (١/١٢٢)

واستضعافهم ، يضعف نفوس الأعداء ، ويقوي العزائم في نفوس المسلمين التي جعلها اللَّه سبباً من أسباب النصر ، مع أخذ أسباب القوة والحذر

الخامسة : تعظيم اللَّه في النفوس ، وأنَّه هو المدبِّر لكل شيء ، وهو الذي بيده كل شيء ، وهو الذي قدَّر لنا هذا بما كسبت أيدينا ، وهو الغالب على أمره ، وأن الكفار لا يقدرون على شيء إلا بإذنه ، وأنهم لا يغلبونه على أمره سبحانه :

﴿ **والله غالبٌ على أمره ولكنَّ أكثرَ النَّاسِ لا يعلمون** ﴾ [يوسف:٢١] .

فنزداد بذلك إيماناً باللَّه ، ويقيناً به ، وتوكلاً عليه

الأمر الذي يُعجّل نصر اللَّه لنا ، وتمكينه لعباده الصالحين :

﴿ **وما النَّصر إلّا من عند الله العزيز الحكيم** ﴾ [آل عمران:١٢٦]

وهكذا كانت جماهير الإسلام الأولى - جماهير الفتح - كانت تنطلق إلى عدوها متوكِّلة على ربها ، مستيقنة منه بنصرها ، مستعظمة ذنوبها ، مستهولة تقصيرها ، محتقرة عدوها ، مستصغرة عدّته وعدده

فلم تكن تلك الجنود المجندة - التي فتح اللَّه بها البلاد ، وهدى على يدها العباد - لتستعظمَ العدو بشيءٍ مما له

بل لم تكن تعلم عن عدوها إلّا أنَّه جبان رعديد ، عاص لله ورسوله ﷺ معرض عن دينه ، ومن كانَ هكذا حاله ، فجزاؤه الهزيمة والهوان

لقد كانت أشد ما تحذر منه تلك الجنودُ المؤمنة أن يقع فيها ما وقع للمسلمين في أحد وحنين ، فَيُصابوا بما أُصيبوا .

لقد كان شعارهم في جهادهم :

إن انتصرنا فبفضل اللّه ، وإن هُزمنا فبذنوبنا وتقصيرنا في حق ربّنا ، لا بكثرة عدونا وقوته .

ولذلك كان الخلفاء الراشدون لا يحذِّرون المسلمين في قتالهم من عدوهم ، بقدر ما يحذّرونهم من ذنوبهم ، ومعاصيهم والآثار في ذلك مستفيضة مشهورة عنهم

الإعداد والحذر شيء ، والاستخفاف بهم شيءٌ آخر :

ولا يعني هذا من قريب أو بعيد ، عدمَ الحذر ، بل الحذر منهم واجب بدليل قوله تعالى :

﴿ **يا أيّها الذين آمنوا خُذوا حذركم** ﴾ [النساء: ٧١]

فهذا أمر ؛ وذاك أمر آخر

ولا يعني هذا من قريب أو بعيد ؛ التقصيرَ في إعداد العدّة ، وتهيئة الأسباب المادية في مواجهتهم كلا ؛ ثم كلا ... فهذا - أيضاً - أمر ، وذاك أمر آخر

قال تعالى : ﴿ **وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوّة ومن رباط الخيل ...** ﴾ [الأنفال: ٦٠]

وهذا الفرق لا يدركه إلّا من تفقه بفقه الكتاب والسنة ، على مسلك سلفنا الصالح .

وأما أهل زماننا : فإنّهم يعلمون عن عدد عدوّهم ، وعدّته ، أكثر مما يعلمونه عن اللّه ، وعمّا يجب عليهم في حقه ، ويتوكّلون على الأسباب المادية ،

ويعلّقون عليها الأمل ، ويُنيطون بها اليقين ، أكثر من يقينهم بالله ، والتوكُّل عليه ... لذلك أصابهم ما أصابهم .

ومع كل هذه الأدلةِ البينة ، والبراهين الساطعة ، لا تكاد تسمع لهذا المفهوم في منهج أهل زماننا ركزاً ، ولا تحس أحداً منهم يتكلم عنه إلا همساً ، بل المتكلم عنه - عندهم - متهم .. مثبّط .. عميل .. !!

وإذا شاكتهم شوكةٌ قالوا :

« أعداؤنا زرعوها لنا في الطريق » !!

وإذا خسروا معركة قالوا : « دبرها أعداء الله » !!

وإذا قصر الأطباء في المستشفى قالوا : « الماسونية وراء ذلك » !!

وإذا سقطت عمارة قالوا : « الاستعمار خطّط لذلك » !!

... ولا يعني هذا - أبداً - أنَّ الكفار لا يخطّطون ، وللإسلام لا يكيدون ، بل كل ذلك حاصلٌ منهم ، على قَدْرٍ عظيم من المكر الخبيث ، والتخطيط المستمر ، ولكن قدرة الله أعظم ، ومكره بهم أعمُّ وأشمل .

قال تعالى :﴿ **وما كيدُ الكافرين إلّا في ضلال** ﴾ [غافر:٢٥]

أي : في هدر وضياع .. وفشل وتباب .

وقال : ﴿ **ذلكم وأنَّ الله موهنُ كيد الكافرين** ﴾ [الأنفال:١٨] .

إذا كان المؤمنون يستحقُّون ذلك .

بل إنك لتعجب كل العجب حين تسمعهم يُسوِّغونَ خسرانهم معركة : أنَّ الأعداء أوقفوا عنهم الإمداد [١]!!

(١) قد حصل هذا ! وهو مسطور في وثائق لدينا ، ولا حاجة لذكر أسماء ولا بلدان !!

فهل يصدق هذا عاقل ؟!؟

الذي يدعوهم إلى مفاهيم الكتاب والسنة ، عميل .. مثبط .. !!

والذين يطلبون من أعداء اللّه أن يمدُّوهم ، ويعلّقون خسرانهم بقطع العدو - نعم العَدو - إمداده عن المسلمين ، فهؤلاء شرفاء مجاهدون !!

ولو أنَّ إخواننا الأفغان ، استعظموا عدوهم ، وحسبوا حساب قوتهم إلى قوته لما كُتب لهم البقاء إلّا أن يشاء اللّه !

ولو كانوا كلهم صفاً واحداً ، وعلى عقيدة سليمة واحدة ، لعجّل اللّه لهم النصر ، وفتحت الدنيا على أيديهم وأيدي المؤمنين معهم ، ولكن كره اللّه تفرُّقهم ، فكان ما كان :

﴿ ولا تنازَعوا فتفشَلوا ﴾ [الأنفال:٤٦]

أعلمتم - إذن - أنَّ ما أصابنا هو بما كسبت أيدينا !

وأخيراً :

إن هذا المفهوم من الأهمية بمكان ، يدفعنا لتربية رجال الصحوة عليه ، وتأصيل الأجيال القادمة به .

وإن الإعراض عنه يعني : البلادة في الذهن ، والعقم في الفهم ، وتضييع الأوقات ، وهدر الطاقات ، وسيظل المعرضون عنه في نكسات إلى أن يعودوا إليه ، ويعملوا بمقتضاه .

وإن العمل بمقتضاه يعني العمل بشريعة الله ، والعمل بشريعة الله يعني القرب منه ، والقرب منه يعني قربه سبحانه منا ، وحينئذ تكون ولايته ، وتحصل ساعتئذ عزّته ، ويتنزل وقتئذ نصره ...هو مولانا ، نعم المولى ونعم النصير

المفهـــوم الثانـــي :

تغيير واقعنا إنَّما يكون بتغيير ما بنفوسنا أوَّلاً

مما سبق من الأصول ، ومما ذكرناه في المفهوم السابق - من أن ما أصابنا إنما هو بما كسبت أيدينا - يتبيّن : أَن لا تغيير نافع ، ولا تبديل فعّال لأوضاع المسلمين ، إلا أن يبدأ من أنفُس المسلمين أنفسِهم ... ليس إلّا

فلا يبدأُ التغيير بقتال عدوهم ، ولا بإزالة طواغيتهم ، ولا بإصلاح اقتصادهم ، ولا بتطوير مدنيتهم ، ولا بمواكبةِ حضارة غيرهم

وإنما يكون التغيير أولاً بفهم ديننا ، ثم إصلاح عقائدنا ، وتصحيح عباداتنا ، وتحسين أخلاقنا ...

﴿ **إنَّ الله لا يغيِّر ما بقوم حتى يغيِّروا ما بأنفسهم** ﴾ [الرعد:١١] .

فقد أفادت هذه الآية أنَّ ثمّةَ تغييرين :

تغيير واقع الناس وما يحيط بهم

وتغيير أنفس الناس وأعمالهم

أما تغيير واقع النَّاسِ ، فهو :

تغيير حالنا ، وواقعنا ، وفقرنا ، وذلّنا ، وكثير من حكّامنا ، والانتصار على أعدائنا

وهذا التغيير مناط باللّه سبحانه ، لا بقوتنا ، ولا ببأسنا ، ولا بتخطيطنا ؛ وأنَّه هو المغيّر سبحانه لا أحد سواه

واشترطَ اللّه لهذا التغيير شرطاً واحداً .. أن نغيّر ما بأنفسنا ، حتى يغيّر الله لنا واقعنا

وبناء على هذا الشرط الرباني ، فإنَّا لن نقدرَ على تغيير الواقع ، إلّا بعد تغيير ما بأنفسنا ؟! وتغيير ما بأنفسنا ، هو التكليف الذي أنيط بنا ، وهو الذي نتحمل مسئولية السؤال عنه في الدنيا والآخرة

فكيف غفل إخواننا عن هذا ، فراحوا يسعون لتغيير واقعهم ، قبل تغيير ما بأنفسهم !؟

ما هو التغيير ؟

إنَّ للتغيير معنى أشملَ مما نفهم لأول وهلة :

إنَّه يعني مراجعةً شاملةً لما نحن عليه ؛ عقيدة ومنهاجاً ، شريعة وأخلاقاً ، سلوكاً فردياً وجماعياً .

إنَّه يعني مراجعةً شاملةً ، لمساجدنا وكتبنا ومجلاتنا - أعني الإسلامية - ولبيوتنا ، ولباسنا ، وعاداتنا ، وتقاليدنا ، وجلساتنا ، وخطبنا ، ودروسا ، ومواعظنا ، ولقاءاتنا ، ومواقفنا ، وطرق تفاهمنا ، ولأساليب نصحنا

إنَّه يشمل كل شيء ، إنَّه يبدأ من التغيير في العقيدة .. إلى إماطة الأذى عن الطريق ، مروراً بإصلاح القلوب التي صدأت ، والعبادات التي انحرفت ، والأخلاق التي ساءت

إنَّه يعني : **التبديلَ الشاملَ لكل شيء يثبت خطؤه** ، من غير مداهنة ولا خجل ، ولا تأويل ولا وجل .

إنَّ عملية التغيير هذه إنَّما هي نصرنا للَّه ، الذي هو شرطُ نصره لنا :

﴿ **يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم** ﴾ [محمد:٧]

وعند ذلك أَبْشِر بفتح مبين ، ونصر قريب

هل غيَّرنا يا عباد اللَّه ؟!

وإنَّنا مهما حاولنا التهرُّب من قوله تعالى : ﴿ **إنَّ الله لا يغيّر ما بقوم ...** ﴾ [الرعد:١١] أو التفلُّت من مقتضاه ، فإنَّنا لن نجني سوى ضياع الأوقات ، وإهدار الطاقات ، لأنَّها صريحة في مدلولها ، واضحة في معناها لا تحتمل تأويلاً ولا تقبل تمييعاً

فهل غيّرنا ما لَحِقَ عقائد المسلمين من الفلسفة ، وعلم الكلام ، والإساءة إلى سلف هذه الأمة ؟!

حتى قلنا :

« عقيدة السلف أسلم ، وعقيدة الخلف أعلم ، وأحكم » !!

فكيف يغيِّر اللَّه حال قوم يزعمون أنهم أعلم من أبي بكر وعمر وأحكم ؟

ويا ليت الأمر اقتصر على هذه المقولة فحسب ، بل تبع ذلك تغييرٌ بالعقيدة عقيدة أبي بكر وعمر !

هل غيرَّ المسلمون ما يعتقدونه في ربهم ؟؟ أنَّه في كل مكان ..!! في

البيوت والأسواق والطرق والحمامات ! وتحت الطائرات والسيارات !! ورجعوا إلى عقيدة الكتاب والسنة : ﴿ **أَأَمِنْتُم مَنْ في السَّماءِ أنْ يَخسفَ بكمُ الأرضَ فإذا هي تَمورُ** ﴾ [الملك:٢٦]

﴿ **الرحمن على العرش استوى** ﴾ [طه:٥] **أي : علا**

هل غيّر المسلمون صلاتهم التي ينقرونها .. ؟؟ بلا خشوع ولا اطمئنان !! ولا اتباع ولا برهان !! إلى صلاة النَّبي ﷺ ؟؟

هل غيّر المسلمون ما بأنفسهم بعضهم على بعض ... من حقد وضغينة ..؟؟ !! وحسد وشتيمة ..! إلى حبٍّ ووئام ، وأُلفة وانسجام .. !!؟؟؟

هل غيّر المسلمون مجالس الغيبة والنميمة .. !! والخوض في أعراض النَّاس .. !! واتهامهم بغير حق ، سوى الحسد والحزبيات .. !! إلى مجالس الذكر ، وحماية الأعراض ، والتثبُّت في الأخبار .؟!؟

هل غيّر المسلمون وجوههم العابسة .. وسحنتهم البائسة .. وهيآتهم المكفهرّة .. إلى ابتسامات مشرقة .. ووجوه ضاحكة مستبشرة .. ولقاءات هادفة ودودة ؟!؟ .

هل غيّر المسلمون ما لحق عقيدتَهم من عقيدة الجبرية ، والاحتجاج بالقدر على جمودهم وكسلهم ، ومخالفتهم لدينهم .

هل غيّر المسلمون ما عَلِقَ بأذهانهم من عفن العلمانية ، وما لحق باقتصادهم من أدران الاشتراكية .. ولست أعني الحكام فحسب .. بل إنِّي سمعت - وأنا صبيٌّ - مسلماً مظلوماً يقول : « أنا مسلم في الدين .. شيوعي في الاقتصاد » !!

هل اتعظ المعاصرون بفشل مناهجهم ، وما جرَّت من ويلات على أمتّهم ..!! فغيّروها ؟ اللهم لا ... إلا من أخلص واتبع

وهيهات هيهات .. إننا ما زلنا دون ذلك بمفاوز

قال شيخ الإسلام عند قوله تعالى :

﴿ ذلكَ بأنَّ اللهَ لم يكُ مُغيّراً نعمةً أنعمها على قومٍ حتى يغيّروا ما بأنفسهم ﴾ [الأنفال:٥٣] :

« التغيير نوعان :

أحدهما : أن يبدِّلوا ...

الثاني : أن يغيروا الإيمان الذي في قلوبهم ، بضدِّه من الريب ، والشك ، والبغض ، ويعزموا على ترك فعل ما أمر اللّه ورسوله فيستحقون العذاب .. »[١] .

قال القرطبي :

« أخبر اللّه تعالى في هذه الآية ، أنّه لا يغيِّر ما بقوم حتى يقع منهم تغيير .. كما غيّر الله بالمنهزمين يوم أُحد ، بسبب تغيير الرماة ما بأنفسهم » [٢].

إنّنا بحاجة إلى تغيير أنفسنا التي سنحاسَب عليها ، قبل السعي لتغيير أرضنا وما عليها !

إننا بحاجة إلى الرجوع إلى هذا القرآن ، لننهج منهجه ، ونتبع نبيّه ، ولتلهج به ألسنتنا ، ويلج في قلوبنا ، ونعمل بأحكامه بجوارحنا ، ونسلك درب حواريِّيه ، خير خلق اللّه بعد أنبيائه عليهم السلام ...

---

(١) « مجموع الفتاوى » (١٤ / ١٠٩)

(٢) « تفسير القرطبي » (٢٩٤/٩)

إنَّ بيننا وبين ذلك مفاوز كثيرة ، نسأل اللَّه تعالى السَّداد والمقاربة

عقوبة المخالفين :

إنَّ الذين حاولوا تغيير الواقع قبل تغيير الأنفس ثم أخفقوا ، عليهم إدراك هذا المفهوم العظيم ، والعمل به

وإنَّ الذين ما يزالون يحاولون تغيير واقعهم ، قبل تغيير ما بأنفسهم ، عليهم أن يتفهَّموا ما أرادَ اللَّه منهم :

﴿ **إنَّ الله لا يغيّر ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم** ﴾ [الرعد:١١]

فإن لم يتفهّموا ذلك ، فعليهم - على أقل الأحوال - أن يتّعظوا بما جرى من أحداث السيرة والتاريخ الإسلامي

فإن لم يتّعظوا بالماضي ، فعلى الأقل أن يتعظوا بإخوانهم وما جرى لهم ، وما هم عنهم ببعيد !

فإن لم يكن شيء من ذلك .. فلسوف يعلمنّ نبأه بعد حين

إنَّ الذين يحاولون تغيير المجتمعات بدءاً من الحكام - قبل تغيير ما بأنفس المسلمين - إنما يجرون وراء سراب ، ويسعون نحو خيال

إنَّ مَثَلَهم : كمثل رجال يبنون هرماً بدءاً من رأسه .. وهيهات هيهات !

إنَّ هذا لا يعني من قريب أو بعيد : أن لا جهاد ، ولا خروج ولا أمر بمعروف ، ولا نهي عن منكر ، بالشروط الشرعيّة .

كلا .. وألف كلا ، فهذا أمر .. وذاك أمر آخر

قال سيد :

« ليست المطالبة بإقامة النظام الإسلامي وتحكيم الشريعة الإسلامية هو نقطة

البدء ، ولكن نقطة البدء هي : نقل المجتمعات ذاتها - حكاما ومحكومين - عن الطريق السالف إلى المفهومات الإسلامية الصحيحة » [1].

إنّما المقصودُ :

أنَّ على الذين يسعَون إلى التغيير أن يغيّروا على طريقة الإسلام .

وأنَّ على الذين يجاهدون لإقامة الإسلام ، أن يجاهدوا على طريقة الإسلام

وعلى الذين يريدون أن يغيروا ما على أرضهم .. أن يغيروا - أوّلاً - ما بأنفسهم

وخلاصة هذا المفهوم :

أنَّ التغيير تَغيّران :

تغيير القلب والعمل ، وهو على العبد بتوفيق الله تعالى له .

وتغيير الواقع والحال ، وهو على الرب سبحانه .

وهما متتاليان ... لا يتحقّق الثاني إلّا بتحقيق الأول شرطاً .

فَمَنْ عكس ، يناله قوله تعالى :

﴿ أَفَمَن يَمشي مُكِبّاً على وجهِه أهـــدى أمْ مَن يَمشي سويّاً على صراطٍ مُستقيم ﴾ [تبارك:٢٢]

ولا يدرك هذا ولا يعمل به إلّا الذين تربَّوا على الكتاب والسنة ، وأدركوا منهج الطائفة المنصورة ، جعلنا اللّه وإياكم منهم .

(١) لماذا أعدموني (ص ٤٤)

المفهـوم الثالـث :

تربية الفرد ، ووحدة الصّف ، قبل مُناجزة العدو

عند التأمل نجد أنَّ هذا المفهوم هو فرعٌ من فروع المفهوم السابق ، وإنما خصّصناه بالذكر والتفصيل :

- لأهميّته من جهة
- ولغفلة كثير من المسلمين عنه من جهة أخرى .
- ولأنَّ إغفاله كان وراء تلك النكسات التي حلّت ببعض الجماعات الإسلامية ، وكان عدم الالتزام به أحد العوامل الكبرى وراء تلك النكبات التي نزلت بالأمة الإسلامية .

إنَّ هذا المفهوم من البداهة بمكانٍ يعجز المرء عن بيانه والاستدلال له ، وضرب الأمثلة له ...

ورغم أنَّ هذا المفهوم من البداهة بمكان ، أدركته النمل في جُحورها ، والنحل في خلاياها ! فلا يزال كثير من المسلمين في غفلة عنه ساهون

إنَّ هذا المفهوم - فضلاً عن أنَّه واجب شرعي مفروض - فهو سنة كونية

وهو شرط شرعي وكوني للنصر ، لا يتحقّق إلّا به ، ولذلك تجد أنَّ أية أمّة من الأمم المتنبهة ، تسعى لتوحيد صفوفها ، وتثقيف أفرادها ، وتربية جنودها وتدريبهم ، قبل مناجزة عدوها

واقع المسلمين :

إنَّ العاقل المتأمّل في واقع المسلمين عموماً ، وواقع الجماعات الإسلامية خصوصاً ، يجد الإهمال العظيم ، ويرى الثغرة الكبيرة التي أحدثها هذا الإهمال ، فتوغل العدوُّ منها ، وتجاوز حدوده ، وعثا في الأرض فساداً

إنَّ عدونا قد أدرك ما نحن عليه من ضعف في الإيمان ، وتمزُّق في الصفوف ، فسعى إلى استدراجنا بمكر خبيث إلى معركة لسنا اليوم أهلاً لها ، وليس بقدرتنا الصمود فيها ، وليس لدينا من الاستعداد الإيماني والإعداد المادي ، ما يؤهِّلنا لاستحقاق النصر من اللَّه ، والوقوف في وجه عدونا

فاستجبنا لمخططه مدفوعين بعاطفة ساذجة ، وحماس متهوّر ، مهملين لسنن اللَّه الشرعية ، غافلين عن سنن اللَّه الكونية ، فكان ما كان ..

إنَّ وقوع الصِّدام مع العدو - وقبل الإعداد - إنَّما يعني ضرب الصحوة وهدر الطاقات .. وإضاعة الأوقات .. والانشغالَ عن التربية والدعوة ، اللتين هما من عوامل الإعداد ، الذي هو من شروط النصر .

ولست أعني ها هنا عدّة الحديد والنار ، ولكنّي أعني ما هو أقوى منه ... عدّة التربية والإيمان ، وعتاد وحدة الصف والإحسان

إنَّ الآيات والأحاديث التي حثّت على التربية والإيمان ، ووحدة الصف والإحسان ، والأخوّة والإخلاص ، كثيرةٌ ؛ وكثيرةٌ جدّاً ، وإنَّ الآيات والأحاديث التي حثّت على سلاح الحديد والنار ، قليلة ؛ وقليلة جدّاً ، لا تكاد جميعها تتجاوز عدد أصابع اليد الواحدة .

ومع هذا كله ما يزال كثيرٌ من المسلمين بحاجة إلى هذه البديهات ، وما يزال كثير منهم ينظرون إلى زبد الناس ، وأغصان الشجر ، ولا ينظرون إلى القاعدة الحقيقية ، والأصل الثابت ، إنَّهم يعملون ، فيسقطون ... ثم ... يسقطون ، ولا يتّعظون .. كأنهم لا يرون واقع الناس ، وكأنهم لا يفهمون السنن الكونية ، ولا يعرفون القواعد الشرعية

كأنهم لا يُبصرون هذه الجماهير التي يعتمدون عليها ، وهي تخادعهم وكأنهم لا يتّعظون بالتجارب التي مرّت بها شعوب إخوانهم ، فأهلكتهم ، فلا ناصر لهم

وأعجبُ من هذا كلِّه أنَّهم لا يقبلون نصيحة ، ولا يسمعون موعظة

إنَّ مثل الذين يجابهون قبل إتمام التربية ، وتوحيد الصَّف ، كمثل القرية بلا سور !

وكمثل طبيب عليل ، فاقد للمناعة ، يداوي مرضى أصيبوا بأمراض فتاكة معدية !

كيف يجاهد من لم يتربَّ على التوحيد والأخلاق ؟!

كيف يجاهد من لم يذقْ طعم الصبر والأخوّة ؟!

كيف يجاهد من لم يعرف التضحية والإيثار ؟!

كيف يجاهد من لم يتلذّذ بالطاعة والانقياد ؟!

﴿ ولنبلونّكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم ﴾

[محمد -٣١]

كيف تُقام دولة الإسلام على أُناس صفوفهم متفرقة ، ورائحة خلافاتهم تزكم أنوف المخلصين ؟!

ألم يَأْنِ لنا أن نتّعظ ؟ أما آن لنا أن نتدبّر ؟

صبر النبي ﷺ في مكة كان تثبيطاً أم حكمة

لم يكن رسول اللّه ﷺ وأصحابه يعجزون عن القيام بثورة في مكة ، ولم يكن تنقُصُهم الشجاعة للقيام باغتيال أئمَّة الكفر ببكّة ، ولم تعوزهم الحيلة لتنفيذ انقلاب ، ولم تنقصهم الفطنة للمشاركة في مجلس النوَّاب [1] ، ولكنّ شيئاً من ذلك لم يكن .. لمَ .. ؟!؟!

هل كان ذلك لجبن وخور ، أو تثبيط وعمالة ؟!

أم كان لحكمة وتعقُّل .. ؟! وفطنة وتدبُّر .. ؟!

قال ابن كثير عند قوله تعالى :

﴿ **أَلَم ترَ إلى الذين قيل لهم كفُّوا أيديكم** ﴾ [النساء:٧٧]

« كان المؤمنون في ابتداء الإسلام وهم في مكة ، مأمورين بالصفح والعفو عن المشركين ، والصبر إلى حين ، وكانوا **يتحرَّقون ويودُّون لو أُمروا بالقتال** ، ليشتفوا من أعدائهم ، ولم يكن الحال إذ ذاك مناسباً لأسباب كثيرة ، فلهذا لم يؤمر بالجهاد إلّا بالمدينة لما صارت لهم دارٌ وَمَنَعة وأنصار » [2].

---

(١) كان لدى قريش مجلس للنواب - يتمثل في دار الندوة وليس بينه وبين مجالس أهل زماننا فرق سوى الشكل والوسائل

(٢) « التفسير » (٥٣٨/١)

ولذلك لما طلب أصحاب بيعة العقبة الثانية من رسول الله ﷺ البدء بالقتال ، والهجوم على الأعداء أبى عليهم ذلك ، ومنعهم منه [1]

إذن ؛ كان المسلمون يتشوّقون إلى القتال ، ويتمنّون الجهاد ، ولكن لم تكن المصالح وقتئذ أكبر من المفاسد وأعظم ، بل كان العكس هو الصواب ولذلك لم يؤذن لهم به وهذه هي العلّة الصحيحة التي يجب أن يقاس عليها ، في كل زمان ومكان

الأسباب الكامنة وراء حكمتهم وصبرهم :

من هذه الأسباب :

الأول - قلّة عددهم بالنسبة إلى كثرة عدد عدوهم

وهذا أمر معتبر شرعاً وواقعاً ...

الثاني - لأنهم في دار ضعف وذلّ ، وليسوا في دار قوة ومنعة

وإذا كانوا كذلك .. من الضعف والقلة .. فأين يداوون جريحهم ؟ وكيف يوارون شهيدهم ؟ وأنى يوفّرون مواردهم وأعداؤهم من فوقهم ؟ والمسلمون لا يملكون من أسباب التمكين شيئاً سوى العاطفة الخادعة ، والحماس المتهور ، وإنَّهما لن يغنيا عنهم شيئاً

وحينئذ.. فإنَّهم سيساقون إلى السجون كالنّعاج ، وإلى المذابح كالدجاج .

الثالث - مصلحةُ بقائهم على الدعوة - على ضعف واستمرار - خيرٌ من الانتصار لظلمهم على خطر وانقطاع .. ونتائج لا تحمد عقباها

قال ابن القيم في « الإعلام » (٢/١٥٠) :

« إنَّه تعالى نهى المؤمنين في مكة ، عن الانتصار باليد ، وأمرهم بالعفو ،

(١) « راجع تاريخ الإسلام للذهبي ، بيعة العقبة الثانية

والصفح ، لئلا يكون انتصارهم ذريعة إلى وقوع ما هو أعظم مفسدة من مفسدة الإغضاء ، واحتمال الضيم ، ومصلحةُ حفظ نفوسهم ، ودينهم ، وذريتهم ، راجحةٌ على مصلحة الانتصار والمقابلة »

ولهذا الأمر أسرار خفية دقيقة ، ليس ها هنا محلُ تفصيلها ، سنأتي عليها مفصّلة في كتاب « المنهاج » إن شاء اللّه تعالى

غير أنَّ ثمّةَ نقطة جديرة بالتسجيل لا بأس بذكرها :

وهي أنَّه لم يكن كل أهل مكة يناصبون المسلمين العداء ، رغم كفرهم ، بل كان منهم من يرأف لحال المسلمين ، ويرحمهم ، وهم يرونهم يُعذَّبون بلا جناية اقترفوها ، ولا جرم ارتكبوه

فكان يحصل في قلوبهم من العطف واللِّين .. ما يكون مقدمة للإيمان ، وقَبول دعوة الإسلام ..

وإنَّ عدم ردِّ المسلمين ، جعل كثيراً من المشركين - في أسوأ الأحوال - يقفون حياداً ، إن لم يكن بعضهم يُساعدونَهم سرّاً

وتصوّر معي - أخي المسلم - لو أنَّ المسلمين استخدموا أيديهم في رفع الغضاضة ، وردّ الظلم ؛ كقتل أحد المشركين ، أو اغتياله ، أو ضربه ضرباً شديداً ، فماذا يكون ؟؟

سيكون هناك ردّة فعل من الجميع عنيفة ، يتبعها اشتداد في التعذيب كبير .. ثم يكون عندهم من المسوِّغات ما يدفعهم لحصد المسلمين ، وإبادتهم عن بكرة أبيهم .

إن استخدام العنف في الدعوة إلى الله ، يعني تقديم مسوغات للعدو لتعجيل تنفيذ مخططاته في القضاء على الدعوة والدعاة ، ولكن أكثر الدعاة لا يعلمون ، ووراء عواطفهم يركضون

الرابع - لقد أُمروا بتأخير المواجهة رغم توفُّر بعض الإمكانات المادية من عتاد وغيره ، ورغم وجود بعض الاستعدادات المعنوية ، من شجاعة وبأس في القتال .. وغيره ، وذلك كيما يتم التمكين الإيماني أولاً ثم الأرضي

الخامس - لقد كان تأخيرُ المواجهة لحكمة بالغة .. أَلَا وهي بلوغ الصحابة الأهليةَ المعنويةَ العاليةَ ؛ من إيمان قوي ، وصبر جميل ، وتضحية مستمرة ، وإخلاص دائم

قال تعالى :

﴿ أَلَم ترَ إلى الذين قيلَ لهم كُفُّوا أيدِيَكُم وأقيموا الصَّلاةَ وآتوا الزَّكاةَ فلمّا كُتبَ عليهم القتالُ إذا فريقٌ منهم يخشون النَّاس كخشية الله .. ﴾ [النساء:٧٧] .

فإذا حصل هذا الأمر العظيم - وهو الخشية - من فريق منهم ، وهم في المدينة في دار تمكين ، وَمَنَعة ، وعزّ ، فما عساهم أن يكون موقفهم في مكة لو أُمروا بالجهاد ، وهم في دار ضعف وذلّ ؟!

إنَّ التسلّح بالعاطفة والحماسة ، والاندفاع والتهوُّر ، لا يُغني شيئاً في طريق الدعوة الشائك ، والسبيل الطويل ،

قال سيد رحمه اللَّه (٢/٧١٢) :

« إنَّ أشدَّ الناس حماسة ، واندفاعاً ، وتهوراً ، قد يكونون هم أشدَّ الناس جزعاً ، وانهياراً ، وهزيمة ، عندما يجدُّ الجدُّ ، وتقع الواقعة ... بل إنَّ هذه قد

تكون القاعدة ! ذلك أنَّ الاندفاع والتهور والحماسة الفائقة ، غالباً ما تكون منبعثةً عن عدم التقدير لحقيقة التكاليف ، لا عن شجاعة واحتمال وإصرار ، كما أنَّها قد تكون منبعثةً عن قلّة الاحتمال ، قلّة احتمال الضيق والأذى والهزيمة ، فتدفعهم قلة الاحتمال ، إلى طلب الحركة والدفع والانتصار بأي شكل ، دون تقدير لتكاليف الحركة والدفع والانتصار ، حتى إذا وُوجهوا بهذه التكاليف كانت أثقل مما قدّروا ، وأشقّ مما تصوّروا ، فكانوا أوَّل الصَّف جزعاً ونكولاً وانهياراً ..

على حين يثبت أولئك الذين كانوا يُمسكون أنفسهم ، ويحتملون الضيق والأذى بعض الوقت ، ويعدُّون للأمر عدته ، ويعرفون حقيقة تكاليف الحركة ، ومدى احتمال النفوس لهذه التكاليف ، فيصبرون ويتمهّلون ويعدُّون للأمر عدته ، والمتهورون المندفعون المتحمّسُون يحسبونهم إذ ذاك ضعافاً ، ولا يعجبهم تمهلهم ، ووزنهم للأمور ! وفي المعركة يتبين أي الفريقين أكثر احتمالاً ؛ وأي الفريقين أبعد نظراً كذلك ! »

قلت : واللَّه لقد عرفت فبيّنت ، ونصحت فأصبت ، ووعظت فصدقت ، ولكن « لا حياةَ لمن تنادي » !

وبناءً على ما سبق يمكننا القول :

.. لا .. ثم لا .. ثم ألف لا .. قبل التربية

ثم قال : (٢/٧١٤) :

« .. ربما كان ذلك لأنَّ الفترة المكية ، كانت فترة تربية وإعداد في بيئة معينة ، ومن أهداف التربية والإعداد تربيةُ نفس الفرد العربي على الصبر ، على ما لا يصبر عليه عادة من الضيم ... ويتجرد من ذاته ، ولا تعود ذاته ولا من يلوذون

به محوراً لحياة في نظره ...

وتربيته كذلك ؛ على ضبط أعصابه ، فلا يندفع لأول مؤثر - كما هي طبيعته - ولا يهتاج لأوَّل مهيِّج ، ليتم الاعتدال في طبيعته وحركته ... »

ولبعضهم شبهة خطيرة ، وهي قولهم : لا حجة بأفعال النبي ﷺ في مكة لأنها قبل اكتمال التشريع ... وقد أجيب عن هذا بتفصيل في مفهوم الطائفة المنصورة - الهداية ثم السياسية[1] - وخلاصته :

إذا كان هذا القول صحيحاً ، فيعني هذا : أن لا حجة بأفعال النبي ﷺ حتى في المدينة خلال التسع سنين الأولى ، لأن التشريع لم يكتمل إلا بعد نزول قوله تعالى : ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم ...﴾ وقد نزلت في حجة الوداع فتأمل ....

والصواب : أن أفعال النبي ﷺ كلها حجة منذ بُعث إلى حين وفاته ... إلا ما دل الدليل على نسخه ، ولا يلزم من ذلك إباحة المحرمات ، لأن بحثنا في أفعال النبي ﷺ وتصرفاته مع كفار قريش والمجتمع من حوله ، وليس بحثنا في المحرمات التي كانت تتعاطاها قريش ، والتي كان مسكوتاً عنها سكوتاً مؤقتاً ... فتدبر

وأخيراً :

موعظة للعقلاء فقط

- إنَّ من الفطنة والكياسة ، ومن فقه الواقع والسياسة ، أن ندرك :

أنَّ وقوع الصدام قبل التمكين الإيماني والمادي ، هو ما يؤمّله أعداء

(١) تحت الإعداد يسّر انجازه

الإسلام ، ويَضْبُون إليه ، ويخططون له ؛ كي يقضوا على الصحوة بحكامها ، ويعقروا الجياد في ديارها ، وفي ذلك راحة لهم من حملة صليبية رابعة أو خامسة ..

أفلا يَعِي هذا إخوانُنا ممن يدّعي فقه الواقع والسياسة .. ؟!؟ (١)

---

(١) لا أعني بهذا البتة كل من تفقه بفقه الواقع والسياسة ، بضوابط الكتاب والسنة ؛ ومنها :
- أنّهما مطلوبان على الكفاية ، لا على كل من هبّ ودبّ ، بحثاً أو إلقاءً
- أن لا يكونا دَيدَن الناس ، وسبيلاً للدعوة ، وطريقاً للتربية ومنهجاً للإثارة
- أن لا يكونا محور الجماعة ، تجمعاً ، ودعوة ، وافتراقاً
- أن يأخذا مكانهما في ترتيب الأولويات ، دراسة واهتماماً ، ودعوة وتفقهاً
وهناك شروطٌ أخرى مبينة في كتاب « المنهاج »

ما هي التربية ؟

« لقد أكدتَّ على التربية مراراً .. وذكرتها تكراراً .. فهل لك أن تُبينها لنا باختصار »

إن مما ينبغي التنبه إليه ، أن العلم شيء .. والتربية شيء آخر وأن التربية لا تتحقق بالخطب ، ولا بحضور دروس العلم ، ولا بحفظ متون الكتب

وإنَّما التربية : ممارسة عملية ، وترجمة حقيقية ، لكل ما نتلقّى ونتعلّم على ساحة الواقع

وبعبارة أخرى :

ضبط تصرّفات الفرد بمعايير منضبطة ، وقواعد معروفة

وباختصار :

هي العمل الصادق بالعلم الصحيح

أو تزكية النفس على ما يحبه اللّه ورسوله ﷺ

وهي وظيفة عظيمة من وظائف الأنبياء عليهم السلام ،

قال تعالى :

﴿ ربنا وابعَث فيهم رسولاً منهم يَتلو عليهم آياتك ويعلّمهم الكتابَ والحكمة ويزكّيهم إنَّك أنتَ العزيز الحكيم ﴾ [البقرة:١٢٩]

وقال سبحانه :

﴿ **لقد منَّ الله على المؤمنين إذ بعثَ فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلّمهم الكتاب والحكمة وإنْ كانوا من قبل لفي ضلال مبين** ﴾ [آل عمران:١٦٤] .

ففي الآية الأولى : ذَكَر اللَّهُ تعالى العلمَ قبل التزكية .

وفي الثانية : ذكر سبحانه التزكية قبل العلم .

وفي ذلك إشارةٌ بليغةٌ إلى عدم استغناء دعوة الرسل بإحداهما عن الأُخرى فلا سداد بتربيةٍ دون علم .. ولا فلاح بِعلمٍ دون تربية .

والعلم والتربية لا يفترقان ، فتدبّر هذا ؛ فهو عزيزٌ .

ثم إنَّنا لو حاولنا الاستطراد والتتبُّع ، لما كانت عليه الأنبياء صلوات اللّه وسلامه عليهم من ممارسة التربية العملية الواقعية - وبخاصة أسوتنا وقدوتنا ﷺ - لعجزنا عن الحصر ....

فمن خُلُقه ﷺ مع أهله وتربيته لهم ، إلى معاملته لأحفاده وأطفال المسلمين ، إلى ممارسة تفتيش أسواق المسلمين ، إلى معايشة المسلمين ، في حلّهم وترحالهم ، وضحكهم وبكائهم ، وسرّائهم وضرّائهم ، وهو يوجههم ، وينصحهم ويسدّدهم ،

إلى غير ذلك مما يطول بحثه ، وليس ها هنا محلُّه .

ولذلك اختصرت عائشة - رضي الله عنها - هذا كله حين سُئِلت عن خُلُقه ﷺ فقالت : « كان خُلقه القرآن »[1]

والتربية لا تعني : حسن الخلق ، وبشاشة الوجه فحسب ، بل تعني : التزام هذا الدين كافّةً ؛ قلباً وقالباً ، ظاهراً وباطناً ، علماً وعملاً ، دعوة وعبادة ، بدءاً من فهم كلمة التوحيد والعمل بها ، وانتهاءً بإماطة الأذى عن الطريق

ولهذا كان أصحاب رسول الله ﷺ - بإرشاد منه - يواكبون علمهم بالعمل .

فعن ابن مسعود - رضي الله عنه - قال : « كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف ما فيهن ، والعمل بهن »[2] .

من غير تفريق ولا تبعيض ، ولا تجزئة ولا تهوين

وقال أبو عبدالرحمن السلمي : حدثنا الذين كانو يُقرئوننا القرآن - وهم الصحابة - : أنهم كان يستقرئون من النَّبي ﷺ ، فكانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يخلفوها حتى يعملوا بما فيها من العمل ، فتعلمنا القرآن والعمل جميعاً .

وزاد في رواية ابن سعد : « وإنَّه سيرث القرآن بعدنا قوم يشربونه شرب الماء لا يجاوز تراقيهم ، بل لا يُجاوزُ ها هنا ، ووضع يده على الحلق »[3]

---

(١) أخرجه مسلم وأحمد وغيرهما

(٢) أخرجه الطبري في « تفسيره » برقم (٨١)

(٣) أخرجه الطبري برقم (٨٢) ، وابن سعد (١٧٢/٦)

إن إهمال مسألة التربية على منهاج النبوة ، كان وراء معظم النكبات التي حلّت بالأُمة الاسلامية ، ومع ذلك لا يزال إخواننا لا يعقلون هذا ، وعلى سبيلهم سادرون[1] ، فلا هم بالسنة يقتدون ، ولا هم بالواقع والنتائج يتعظون !!

فكم في زماننا من مجاهد بلا عقيدة !! وكم من عالم بلا عمل !! وكم من عامل بلا علم !! وكم من داعية بلا تقوى تردعه .. أو علم يقوّمه !!

كل ذلك بسبب سوء التربية .. وأَخْذِ بعض هذا الدين ، وهجران بعضه والانشغال عنها بالسياسة ، وبالأحداث الجارية ، وبفقه الواقع الذي أُعطيَّ حقاً فوق حقه ، وأُنزل محلاً غير محله ، فشغلوا بذلك عن التربية وهم لا يشعرون

قال سيّد :

« ولكن لي فقط توجيهاً عاماً ؛ لكل الإخوان ، ولكل الحركات الإسلامية ، وهو أن لا تستغرقهم الأحداث الجارية ، وأن لا ينغمسوا فيها ، وفي المناورات الحزبية ، والسياسية ، فإن لهم حقلاً آخر أوسع وأبعد مدى ، وإن كان بطيئاً وطويل الأمد ، وهو حقل البعث الإسلامي للعقيدة وللقيم وللأخلاق وللتقاليد الإسلامية في صلب المجتمعات ، حتى يأذن الله - بالجهد الطويل والصبر - بقيام النظام الإسلامي ، وإنني ألاحظ شدة انغماس [وذكر إحدى جماعات الإخوان] ومنذ نشأة الجماعة هناك - بالحداث السياسية وقلة التفرغ للتربية »

---

(١) قال أهل اللغة السادر : المتحير ، وغير المتَثَبِّت ، والذي لم يكد يُبصِر الطريق ، والذي لا يهتم بالشيء ولا يُبالي به ، والسادر : الذي يركب البحر فيرفعه الموج ويخفضه .. فأي هذه المعاني اخترت فهو صواب ، والمعنى الأخير أقرب ؛ لمناسبته لواقع كثير من المسلمين المعاصرين

آثار التربية ومفاسد هجرها

إذا عُلم أن التربية هي العمل بالعلم .. فإن لممارستها أثراً عظيماً في تقوى الله ، وإصلاح النفوس ، وتقويم المجتمعات

فبها يتحقق تماسك الصف ... وتتم وحدة الكلمة ، ويدفن كثير من الخلاف وبها تحيا الأخلاق الحميدة ، أخلاق التطاوع والتسامح ، وتختفي المصالح الفردية .. فتستقيم بذلك النفوس ، وتصلح المجتمعات ، ويصبح المسلمون كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً ... فيتنزل النصر ، ويتم التمكين .

وحين يفقد المسلمون حسن التربية .. تمزق صفوفهم ، وتزداد خلافاتهم ، فيتنابزون الأخلاق الذميمة ، ويتراشقون الاتهامات العظيمة فينمو فيهم الحقد وتعشّش في قلوبهم الكراهية ؛ وحينئذ تفسد النفوس ، وتضعف الجماعات ، وتحلّ المجتمعات .

وهذا ما كان في معظم الأحايين التي أهمل فيها المسلمون التربية ... فحصدوا أشواك فقدانها ، وتجرعوا سمّ غيابها .. ونالوا بلايا إهمالها ، فتأخر عليهم النصر .. وبعد عنهم التمكين .. ثم أحالوا ذلك كله على أعدائهم ، وهي إحالة على مفلس ، وبهذا تعلم الأسباب الحقيقية لفشل كثير من الجماعات فضلاً عن انحرافهم المنهجي .

ومن ترك أمراً واجبا عوقب بحرمان ثمرته

وأمّا وحدة الصف :

فلا تخفى أهمّيته على الكافرين ، فكيف خفي ذلك على الذين يقرؤون صباح مساء ﴿ **إنَّ الله يحبّ الذين يقاتلون في سبيله صفّاً كأنّهم بنيانٌ مرصوصٌ** ﴾ [الصف:٤] !!

إنَّ مفهوم هذه الآية يعني : إنَّ اللَّه لا يحبّ المتفرّقين

وإذن ؛ فإنَّ اللَّه لا ينصر - نصر استحقاق - من لا يحبُّ ، فكيف يجاهد من يجاهد ، وصفوفهم ممزقة ، وكلمتهم مفرقة ، وقلوبهم متنافرة !؟

وإذا كانت نتيجةُ التنازعِ الفشلَ لا محالةَ - وذلك بإخبار العليم الخبير - ﴿ **ولا تَنازَعوا فَتَفشَلوا** ﴾ [الأنفال:٤٦] !

فلماذا - إذن - الجهد والبذل والتعب ، وإضاعة الأموال ، وهدر الأرواح ، وهدم الديار ، وتشريد الصغار والكبار

.. لقد جاهدنا وتنازعنا ، ثم فشلنا وفشلنا وفشلنا

ثم ماذا كان .. ؟

هل اتعظنا ؟ كلّا وألف كلّا !! فلا بالنصوص عملنا ، ولا بالواقع اعتبرنا ، ولا بنصائح إخواننا اتّعظنا .. !! ﴿ **فأين تذهبون** ﴾ [التكوير:٢٦]

وإلى اللَّه وحده المشتكى

من أركان العمل الجماعي :

إنَّ بناء الجماعة ، ووحدة الصف ، ركنٌ ركينٌ من أركان العمل ، والسعي نحو التمكين ، ولا يمكن بحالٍ من الأحوال التنازلُ عنه ، أو غضُّ الطرف عن

خلله .

إنَّ التنازل عنه ، أو إرجاءه ، يعني بالضرورة : ذهاب العمل هباءً منثوراً ، وسقوط الجماعة ولو بعد حين ، وقد تكون هي ساقطةً في واقعها ، قائمة في اسمها وظاهرها

إنَّ من البناء : العمل بقوله تعالى : ﴿ **واعتَصموا بحبلِ الله جميعاً** ﴾ [آل عمران:١٠٣] . قبل منازلة الأعداء ..

ومن البناء : أن نفهم قوله ﷺ :

« إذا بويع لخليفتين فاقتلوا الآخِر منهما » (١)

ولذلك أدركت الجماعة الأولى هذا المفهومَ ، وسعوا إلى وحدة الصف ، واجتماع الكلمة ، قبل منازلة الأعداء

فقاتل علي رضي اللَّه عنه الخوارجَ وقتلهم ، وذلكَ قبل قتال اليهود والنصارى ...

ولا يعني هذا دعوة المسلمين إلى الاقتتال !

لأنَّ هذا : إنما يكون عندما يكون للمسلمين خليفة شرعي ، ثم يخرج عليه خارج .

وإنما يعني : أهمية وحدة الكلمة ، ووحدة الصف ، في بناء الجماعة ، وتحقيق النصر ، والتمكين في الأرض

ومِمّا يَجبُ معرفتُه ووعيُه : **أن تكونَ تقوى اللَّه عزَّ وجل قبل المناجزة :**

(١) أخرجه مسلم (١٨٥٣) وغيره

وهذا أمر لا يختلف عليه اثنان ، ولا ينتطح فيه - كما يقولون - عنزان

فتقوى اللَّه عزَّ وجلَّ أُسُّ كل شيء ، وملاك كل أمر ، وبها يكون النصر .. وبها يتحقق التمكين .. وبها تنال العزة .. وهي المخرج من كل ضيق ، والتوفيق لكل خير ، قال تعالى :

﴿ **ومَن يتَّقِ اللهَ يجعَل لهُ مخرجاً ويرزُقه من حيث لا يحتَسِب** ﴾ [الطلاق:٢]

وقال : ﴿ **يا أيُّها الذين آمنوا إنْ تتَّقوا الله يجعَل لكُم فرقاناً** ﴾ [الأنفال:٢٩]

واللَّه لا يتقبل إلّا من المتقين ، قال سبحانه :

﴿ **إنَّما يتقبَّل الله من المتقين** ﴾ [المائدة:٢٧]

واللَّه لا ينصر - نصْر استحقاق - إلّا المتقين ، قال سبحانه :

﴿ **إن تَنصروا الله ينصركم** ﴾ [محمد:٧]

واللَّه لا يمكّن - تمكيناً شرعياً - إلّا للمتقين ، قال عز وجل :

﴿ **وعدَ الله الذي آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنّهم في الأرض ...** ﴾ [النور:٥٥]

أربع من أسباب نكباتنا :

إذا وقفت على هذا، وعرفت حال المسلمين - الحقيقية لا الظاهرية - ؛ من تفرق وتمزق، وبُعد عن التربية العملية، وحاجتهم إلى تقوى الله حق التقوى.

إذا عرفت هذا ؛ أدركت لماذا نقوم من نكبة ، فنسقط في ما هو أكبر منها .. !! ولماذا نخرج من ضيق ، إلّا وندخل فيما هو أضيق منه .. !!

وعرفت لماذا تتوالى النكسات علينا ، ويتأخر النصر عنا ؟!

« وإذا عُرف السَّبب بَطَلَ العجب »

عن الزبير بن العوام أنَّ النَّبي ﷺ قال :

« دبّ إليكم داء الأمم : الحسد والبغضاء ، هي : الحالقة ، لا أقول : تحلق الشعر ، ولكن تحلق الدين ، والذي نفسي بيده ، لا تدخلوا الجنَّة حتى تؤمنوا ، ولا تؤمنوا حتى تحابُّوا ، ألا أدلُّكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم أفشوا السَّلام بينكم »[1]

فتأمّل قَسَم من لا ينطق عن الهوى :

« والذي نفسي بيده ، لا تؤمنوا حتى تحابُّوا »

فأين التحابب يا عباد اللَّه ، يا من يسعون إلى التمكين ... وهم يحلقون دين بعضهم ، بل يحلقون دين سلفهم حلقاً ؟!

والذي نفسي - ونفس حبيبي محمد ﷺ - بيده ، **لن نُمكّن حتى نتحابب ، ولن نُنصر حتى نتآخى**

إذا تأمل العاقل هذا ، أدرك - بعد ذلك - :

- لماذا لم ينصرنا اللَّه سبحانه ؟!

- لماذا لم يُمكّنا اللَّه سبحانه ؟!

واللَّهُ هو مولانا ، عليه توكّلنا وإليه نتوب

---

(١) الترمذي (٤/٦٦٤) ، وأحمد (١/١٦٤ و ١٦٥ و ١٦٧) ، وصححه شيخنا في « صحيح الجامع » (١/٣٣٦١)

شبهة شائعة :

إلى متى نربي !!

يحسن أن نذكرها هنا شبهة عند بعض الإخوان ، ثم نذكر ما هو الصواب من منهج سلفنا الصالح في ذلك ، واللَّه المستعان ، وعليه التوفيق والسداد

يقول بعض الأخوة :

« إلى متى نربي »

« **كيف نبني وهم يهدمون ؟** » .

وبناء على هذا يقولون :

لا بد - إذن - من مواجهتهم أوّلاً ، ثم البناء ثانياً ، إذ إنَّنا لو استمررنا بالبناء أولاً .. لما استطعنا أن نبني شيئاً ، وهم في مواجهتنا ، ويهدمون ما بنينا » .

والجواب من وجوه :

الأول : إن المسلم ملزمٌ بمنهج الكتاب والسنة ، وما كان عليه سلف هذه الأمة ، وما عليه إلّا السير على هذا الصراط ، غير مبالٍ بنتيجة ولا عدو ، ولا شبهة ولا تجرِبة ، فإن الحق لا يتعلّق بهذه الأمور ، ولن يسألنا اللَه عمَّا بنينا ، وإنما يسألنا عن صواب طريقنا ، وصدق نيَّاتنا

الثاني : إنَّ ما يطرأ من شبهات ، لا يجوز أن يؤثّر في الأصل ، والأصل - وهو الطريق - أعظم وأوضح من أن يعرقل السير عليه شبهة ، أو تقطع به عقبة

أوَ كلّما اعْتَرَضَتْنا عَقَبَةٌ ، تركنا الصراط ، وكلما جاءتنا شبهة ، شككنا في الطريق

الثالث : لقد كان هذا واقعَ الأنبياء عامة ، وحالَ رسولنا خاصة صلوات اللّه وسلامه عليهم أجمعين ، فكانوا يبنون ... ويحاول الكفار أن يهدموا ..

فما تنكّب الأنبياءُ - لفعل الأعداء - الصراطَ المرسومَ ، ولا خرجوا عن السبيل المعلوم

ولذلك نجدهم - صلوات اللّه عليهم - لم ينتصروا لظلم وقع عليهم ، ولا أراقوا قطرة دم واحدة في الدعوة قبل التمكين ، بل ولا لطموا أحداً قط

وما قالوا : « نحن نبني وهم يهدمون » !!

إن لازم هذه المقولة : تخطئة الأنبياء وعلى رأسهم نوح عليه السلام ، الذي مكث تلك السنين الطوال دون أن يقول : « نحن نبني وهم يهدمون » ، ولم يطلب من ربه .. حمل السلاح .. ولا مقارعة الأعداء .. فهل من مدّكر .

الرابع : إنَّنا لو كنا نبني بقوة وثبات - كما كان يبني الأنبياء من قبلنا وكما بنى رسول اللّه ﷺ أصحابه - لما استطاعوا أن يهدموا .. وهذه سنة اللّه في خلقه .

وبعبارة أخرى :

لو كان تأسيسنا تأسيساً صحيحاً ثابتاً ، لكان بناؤنا قوياً ، ولما استطاعوا أن ينالوا منه شيئاً

وهذه سنة الله فيمن بنى بنياناً صحيحاً ثابتاً ، أن يحفظه سبحانه ، وأن يتولى بنفسه رد الكيد عنه

﴿ ذلكم وأن الله موهن كيد الكافرين ﴾ [الأنبياء - ١٨]

فقد تكالب الأعداء على الأنبياء أكثر من تكالبهم علينا ، ومع ذلك استمروا في البنيان

لأنَّ البناء القوي لا تؤثِّر فيه العواصف .. ولا تُزلزله الزلازل .

ولذلك ما استطاعَ أعداؤهم أن يهدموا ما بنوه ؛ وذلك لقوته ، ومتانته وذلك بحفظ الله له ، قال سبحانه :

﴿ ولا تك في ضيق مما يمكرون إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ﴾ [النحل -١٢٨]

وأما نحن ؛ فنظن أننا نبني .. والحقيقة أن بنياننا أوهى من بيوت العنكبوت

ولا أدلَّ على ذلك من أن صيحة واحدة في مئات من الألوف من المسلمين ، تجعلهم لا يلوون على شيء

الخامس : إنَّ العداوة للحق سنة كونية ، ما دام على الأرض حق ، وليست العداوة أمراً محدثاً ، حتى نُحدِثَ لها طرقاً وقائية ، أو نخترع أساليب جديدةً في المواجهة ، فلا تغيير ، ولا تبديل ، لا في العداوة ، ولا في مواجهتها ، وحفوف

الطريق بالمكاره ليس سنة جديدة ، ولا أمراً محدثاً ، حتى يعالج بطرق محدثة ، بل لا بد أن نعالج بمثل ما عالج الأنبياء ،ولانضع له دواء مخترعاً من عند أنفسنا.

السادس : إنَّ العاقل إذا أرادَ أن يبني بناء قويّاً متيناً ، بناه تحت ظروف صعبة ، وأجواء متباينة ، لكي يكون ملائماً كافة الظروف ، متوقّعاً له كافّة الاحتمالات ، وعليه - والحالةُ هذه - أن يبنيه في الصيف والشتاء ، فتظهر له العيوب فيصلحها ، وتبين له الثغرات فيسدُّها

وإذا ما بنى بيته في فصل واحد ، ظهر له من العيوب في الفصل الآخر ، ما لم يظهر في الفصل الذي بناه

وكذلك تدرّب الجيوش على أقسى أنواع التدريبات ، وتحت مختلف الأجواء ، ويُوضع لها أبشع الاحتمالات ، وأسوأ التوقعات ، ويرسم لها أشدّ الخطط وأصعبها ، حتى إذا ما واجهتها لم تُفاجَأْ بها ، وأحسنت التصرف حيالها

ولهذا مرّ على الذين ربّاهم رسول اللَّه ﷺ في مكة ظروفٌ قاسيةٌ ، وأحداثٌ مفجعةٌ ، عالجها رسول اللَّه ﷺ معالجة تربوية صحيحة ، أخرجت رجالاً ، هان عليهم ما جرى عليهم - بعد ذلك - من أحداث جسام .

السابع : إنَّ في هذه المقولة :

« نحن نبني وغيرنا يهدم ، وإذن علينا أن نتحول إلى المواجهة » !!

اعترافاً ضمنيّاً ، أنَّ البناء لم يكتمل بعد ، وأنَّ الطلّاب لم يتربوا ، ولم ينضجوا

وإذا كان الأمر كذلك :

فكيف نتحوّل إلى المواجهة التي هي أخطر وأشد - على الآخرين - من الدعوة .. وإذن سيكون انتقامهم أشدّ وأعنف ، وسينعكس هذا على الدعوة لتكون النتائج أوخم وأنكى .

إن الذين لا يصبرون في المجال الدعوي ، أعجز من أن يصبروا في ساحات المواجهة .

وإنه لمن السذاجة ، أو الخيانة ، أو الغش لهذه الصحوة ، أن نواجه ببناء غير تام ، وبأُناس لم تتوفّر فيهم عوامل النصر ، وأهلية التمكين ، من صبر وأخوة ، وتضحية وإيثار .

فتأمل هذا ؛ فهو - واللّه - نافعٌ لمن أراد الإنصاف والانتفاع .

إنَّ عدم إدراك هذه القضية من قِبَلِ كثير من الجماعات ، أوردها المهالكَ .

فهل من معتبر !؟

الثامن : إنَّ حقيقة هذه الشبهة عند إمعان النظر فيها ، تُفضي إلى الاستعجال والتضجُّر ، وليس إلى التأني والتصبُّر

قال سيد رحمه اللّه (٢/٧١٢) :

« كما أنَّها - أي الحماسة والاندفاع - قد تكون منبعثةً عن قلّة الاحتمال ، قلة احتمال الضيق ، والأذى ، والهزيمة ، فتدفعهم قلة الاحتمال إلى طلب الحركة ، والدفع ، والانتصار بأي شكل ، دون تقدير لتكاليف الحركة والدفع ، والانتصار »

فَأَنْبِئونا - أيها الأخوة - بعد كلام هذا الداعية المجرّب ، والخبير الصادق - علىأي طريق تسيرون .. ؟ وفي أي اتجاه تسلكون ؟

التاسع : إنَّ التاريخ والأحداث والواقع يشهدون - بإنصافٍ - على بطلان هذه المقولة ، وفساد مضمونها ، وشؤم مقتضاها

بل إنَّ الواقع القريب ، والأحداث المتتالية ، يشهدان شهادة منصفة - واللّه - لا زور فيها ولا تمويه : أنَّ هذه المقولة التي رُبي عليها كثيرٌ من الشباب ، هي التي كانت سبباً في اندفاعهم وتهوّرهم ، وهي التي كانت وراء كثير من البلايا والرزايا والنكبات التي حلّت بساحة المسلمين .. فهل من معتبر !؟

العاشر : إنَّ هذه المقولة ، ليس عليها دليل من كتاب أو سنة أو سِيرة سَلَف .

بل هي من بناتِ أفكارِ من لم ينضج علمياً ، ومن عواطف مَن لم يصبر دعوياً ...

فضلاً عن أنَّها تخالف ما كان عليه الأنبياء .. وحسبك بهذا دليلاً على بطلانها !!

ويحتج أخواننا على ذلك بقول الشاعر :

متى يبلغ البنيان يوماً تمامه ..... إذا كنت تبنيه وغيرك يهدم

وما كان حجته الشعر فيرد بالشعر

قال الشاعر الإسلامي محمد الجبالي ، حفظه الله - بشيء من التصرف-:

بَلى يَبْلغُ البيانُ حتماً تمامَهُ إذا كنتَ تبنيه بصبرٍ وتُحكِمُ
فمادام أسُّ البيت صُلباً موطَّداً تعالى البنا رغمَ المعاولِ تهدِمُ
وإن كان أسُّ البيت هشاً مدعَّماً بِعاطفة الأحداثِ خرَّ يُدمدم[1]
وإن كان أسُّ البيت قولا مُزيَّناً تهاوى البنا رغم الهتاف يُحمحم[2]
ولو زنت أسباب البلايا فَلْن تجد كمثلِ الحماس الفجّ داءً يداهمُ
ومن كانت التقوى أساسَ بنائهِ فما ضرَّهُ كيدُ ورجمٌ ودمْدَمُ[1]
كذا أنبياءُ اللهِ كانت حياتُهُم جهاداً وصبراً لا يكلّ ويسأمُ
فقام البِنا رغم المكائد شامخاً نُسورُ السَّما تبغي علاه وأنجُمُ
واللَّه الهادي إلى سواء السبيل

خلاصة هذا المفهوم :

إن من فقه الأولويات الواجب ، تقديم التربية والإعداد الإيماني - كما كان عليه رسول الله ﷺ في مكة - على كثير من الأمور

وإنهما لمن عوامل النصر والتمكين الأساسية ، وإن الإعراض عنهما أو إهمالهما ، مفض إلى نتائج لا تحمد ، وضلال مستطير

وإنَّ الاستجابة لتحرّش الآخرين ، أو إثارتهم قبل التربية والإعداد ، وقبل وحدة الصف والبناء ، يعني بالضرورة هدم ما يبنى ، واستنفاذَ الطاقات ، وتضييع الشباب ، وتحقيق أهداف العدو وقد كان ... !!

نصحت لهم نصحي بمنعرج اللِّـوَى فلم يستبينوا النصحَ إلّا ضحى الغدِ

فهل من معتبر ؟!

(١) دمدم : هدّم (٢) قال في القاموس : الحمحمة : عرُّ الفرس حين يقصر في الصهيل ، ويستعين بنفسه والمقصود: تغطية قلة أعمالنا وسوئها بكثرة كلامنا ، وصراخنا

مراحل طلب العلم

كنتُ قد ذكرت في المختصر - الطبعة الأولى - مراحل طلب العلم .. وليسَ لها ها هنا مناسبة ، ولكن تلبية لرغبة بعض الأفاضل .. ذكرتها في آخر هذا الجزء لعل الله عز وجل ينفعَ بها وإلّا فمحلها : « التربية .. سبيلها .. وأنواعها »

يُمكن تقسيم مراحل طلب العلم - تجاوزاً - إلى ثلاث مراحلَ ، كي يسهل على الطالب طلبُ هذا العلم الشريف ، وكيما تنضبط أصوله ، وتظهر معالمه ، ويؤتي ثماره

المرحلة الأولى :

وهي مرحلة : توجيه **وتصفية** ، وبناء **وتربية** ، وتأصيل وتحلية ، وتعليم وتقوية : بناء لعقله وفكره ، وتربية لنفسه وخُلُقِه ، وتوجيه لاندفاعاته وطموحاته وآماله ، وتصفية لأفكاره ومعتقداته ، وتأصيل لعقيدته ومعالم دينه ، وتقوية لإيمانه ، واعتزازه بإسلامه ، واتباع سلفه وتعليمه أحكام عباداته ، وقواعد معرفة الحق ، وتدريبه على تطبيق قواعد الإنصاف ، وأدب الخلاف ، وحسن الأخلاق

ومرحلة البناء هذه ، تكون هادئة هادفة

تتميز - هذه المرحلة - بالسعي نحو التمكين : تمكين الإيمان في النفوس ، والعلم في الصدور ، والتوحيد في القلوب ، وتؤصل فيها طاعة اللّه عزَّ وجلَّ ، وطاعة رسوله ﷺ ، واتباع سلفه ، وتتصف بالسهولة واليسر على الناشئين ، وتكون أبعد ما يمكن عن الحماسة والعاطفة ، لأنَّ ما في نفس الشاب من حماسة وعاطفة ، كافيتان لعمله ، وحركته

وليس من الحكمة في شيء أن نزيد حماسة الشاب حماسة ، وعاطفته عاطفة ، فيحصل من الثوران ما لا تُحمد عقباه

ولا أدلَّ على ذلك من هذا الواقع .

وفي حكمة رسول اللّه ﷺ مع أصحابه وأعدائه في مكة عبرةٌ لمن أراد الرشاد ، ودروسٌ لمن أراد السداد

والواجب ضبطُ هذه الحماسة ، وتوجيهُ هذه العاطفة ، لا إثارتهما قبل التربية والعلم ، والتوجيه والحلم

كما يركّز في هذه المرحلة ، على التعاون والأخوّة ، والإخلاص والتقوى ، والمحبة والتضحية ، وعلى أنَّ هدفنا النجاة من النار ، والفوز بالجنة

كما يجب إرشاد المتعلم إلى أهمية القيام بالواجبات الشخصية لما لها من نفع في توطيد الإيمان .. وإمداد النفس ، وحملها على المتابعة والاستمرار

والخلاصةُ أنَه يُركّزُ في هذه المرحلةِ على :

- الإيمان ومعناه ، والتوحيد ومقتضاه .. والشرك وأقسامه
- الاتباع وضرورته .. والاختلاف وضوابطه .. والدليل ومُضادّاته ..

- مراقبة اللّهِ وحدَه ، وحسن الخُلُق وأهميته ، وسُبل تحقيقه وترجمته .

لأنَّ في بيانِ حقيقةِ الإيمانِ وصحةِ العقيدةِ حفظاً له من الانتكاسِ ، وسلامةً له من الارتكاسِ في تيّاراتِ المعادين للإسلامِ

ولأنَّ في بيانِ حقيقةِ الاتِّباعِ .. صيانةً له عن الانحرافِ في الطرائقِ الضالّةِ عن الإسلام ، والجماعاتِ المنحرفةِ

ولأنَّ في بيانِ أهميّةِ مراقبةِ اللّه ، وحسن الأخلاق وقايةً له من سُوءِ الخُلُقِ والجفاء ، والانزلاقِ في مهاوي الرذيلةِ ، والسُّقوطِ في حَمَأَةِ الفاحشةِ

ولهذا لا بُدَّ أن تكونَ العمليّةُ التربويّةُ متكاملةً ، حتّى تحقّقَ نتائجها المؤمَّلة ، وتُوتي ثمارَها اليانعة ...

وإلّا فإنَّ من سوءِ التربيةِ أن يُلَقّنَ العقيدةَ .. ويحفظَ متونَها أو يُركّزَ على الاتباعِ ، وحفظُ رواياتِ السَّلفِ .. وتُهْمَل تقوى اللّه ومراقبته وحسن الخُلُق .. كما يحصلُ في بعض الجامعات .. فيخرجُ جيلٌ يَحفظُ ولا يَفقه ، يعلم ولا يعملُ ، وفي بعضِهم من ضعفِ الإيمانِ .. وقلّةِ التقوى .. وسوءِ الخُلُق .. ما يَكْمِدُ النُّفوسَ حسرةً .. ويُفَطِّر الأكبادَ أَسَفاً

ومن سوء التربيةِ أيضاً : أن يُرَبّي الناسَ على الترغيبِ والترهيبِ ... والحثِّ على تقوى اللّه تعالى وحسنِ الخُلُقِ ! دون تمسك بالعقيدة ، واتباع للسنة والسلف ... وإذا رأيتَهم تُعجبْك أخلاقُهم ، وإن يَقولوا تُدهشْكَ فصاحتُهم ، كأنَّهم خُشبٌ مسندَّةٌ !! من قلّةِ الفقهِ .. وضحالةِ العلمِ ، وجهلِ العقيدةِ

المرحلة الثانية :

وهي مرحلة شرح وتفصيل ، ومتابعة لما سبق في المرحلة الأولى

ويتميّز صاحبها بالتعقُّل والمحاكاة ، والمناقشة والمنافسة ، وإدراك ما يدور حوله ، وفهم أوسع لدينه

ويهتمُّ فيها بزيادة العلم ، ووضع ضوابط للفهم ، توعية له بأصول دينه ، ونقاوة عقيدته ، وصحة مذهب أهل السنة والجماعة ، وبيان عوار الفرق الأخرى وأسباب انحرافها ، والاهتمام بفقه الدعوة وأساليبها ، والتركيز على الحكمة والبصيرة في دينه ودعوته ، وتدعيم التعاون والأخوّة

المرحلة الثالثة :

وهي مرحلة التوغّل والتعمق، والفهم الصحيح لقواعد هذا الدين وأصوله .

وينبغي أن يصلَ الطالب في هذه المرحلة ، إلى منزلة الداعية الذي :

يُنافح عن هذا الدين ببصيرة ..

ويُدافع عنه بعلم

ويدعو إليه بحكمة .

وفي هذه المرحلة يكون الطالب قد وصل إلىدرجة كبيرة من الفهم ، بحيث يستطيع أن يختار لنفسه ما يناسبها من اتجاهات العلم المختلفة ، حيث يكون القلب قد مال بطبيعته إلى قسم من أقسام العلم ، كالتفسير وعلومه ، أو السنَّة وعلومها ، أو الفقه وعلومه ، أو الخطابة والدعوة ، وما إلى ذلك من أنواع العلوم النافعة

خلاصة الأجزاء السابقة

يُمكن إجمالُ المعاني التي وردت في الكتاب ، في الفقرات التالية :

الأولى :

– **معرفة ما كانت عليه الجماعة الأولى** : كيف تربّت ؟ ... وبماذا تربت؟ ... وكيف سارت ؟ ... أصولها ... قواعدها ... عقيدتها ... منهاجها ... أخلاقها ... تصرّفها ... ما موقفها من المسؤولين ؟ ما موقفها من الخلاف العَقَدي ، أو الفكري ، أو الفقهي ... أو المنهجي ؟!!

الثانية :

تربية النشء على ذلك ، حتى لا تجتالَهم الفرقُ الضالّةُ ، ولا تنحرف بهم الأفكار الخادعة

ومن المُلفت للنظر حقّاً ، والداعي إلى التأمّل والتفكر والدراسة ، أنَّ أحداً من أصحاب رسول اللّه ﷺ لم يكن في أي فرقة من الفرق الضالة ، فلم نجد صحابياً واحداً خارجياً ... شيعياً ... معتزلياً ... أشعرياً ... صوفياً ... وإنّ أحداً من الصحابة رضوان اللّه عليهم ، لم يكن ليطمئن أنَّه من أصحاب الجنة ، ومن الناجين من النار ، حتى المبشرون بالجنة ، بل حتى سيدهم : أبو بكر ، ومَن مِنه تفر الشياطين عمر بن الخطاب ؛ رضي اللّه عنهم أجمعين ...

كانوا أخوفَ الناس من اللَّه ، ويذكرون من ذنوبهم ما لو كانت لنا لكانت حسنات !

ونحن نرى هؤلاء الناس (!) في زماننا ، وكأنهم أمسكوا بمفاتيح الجنَّة ، وأخذوا العهود والمواثيق من اللَّه أن لا يعذبَّهم أبداً ، وهم لا يعرفون معروفاً ولا ينكرون منكراً ، فإنَّا للَّه وإنَّا إليه راجعون

الثالثة :

دراسة مشكلاتنا الراهنة ، وبخاصة مشكلات الشباب ، وحلّها على ضوء الكتاب والسنة ، وفي إطار منهاج أهل السنة والجماعة .

الرابعة :

إخضاع واقعنا المعاصر بما فيه من علم دنيوي ، وتقدُّم مادي ، ومشكلات مختلفة ، لقواعد الدين ومناهجه ، ومن عكس فقد ضَّل .

الخامسة :

التركيز بالقدوة على الخُلُق والعلم والعمل ، وأن لا يتّخذ هذا الإسلام غرضاً ، وهذا الدين مأرباً ، إلّا غرض الدار الآخرة ونعيمها

فكم رأينا من قادة للمسلمين ، ما إن وصلوا إلى ما وصلوا إليه ، إلّا وتكشّفت نياتهم ، وكان شرُّهم على الإسلام والمسلمين أعظمَ من خيرهم ، وكانوا بلاء عليهم أيما بلاء

السادسة :

التركيز على التعاون على البرّ مع المسلمين جميعاً ، والحب في اللَّه لا في الأشخاص ، والانتساب إلى الإسلام لا إلى حزبية معينة ، فإذا كان كل واحد منا ينتسب إلى حزبية ، ويعمل لها ، فمتى نتّحد ومتى ننتصر ... ؟

والاعتصام شرط من شروط النصر ، والتنازع سبب من أسباب الفشل : ﴿ **وَلا تَنازَعُوا فَتَفشَلوا** ﴾ [الأنفال:٤٦] .

السابعة :

الأصل في تجمُّع الجماعة الإسلامية ، هو التوحيد والمنهاج ، يُوالى ويعادى لهما وفيهما وعليهما

ومن مستلزمات التوحيد وموجباته ، طاعة اللَّه عزَّ وجلّ ورسوله ، واتّباع خيرة صحبه ، فلا يُعادي لحزبية ، ولا يفارق في جزء ، ولا يخاصم في فقه ، ولا يُشاقق في مندوب ، فضلاً أن يُعادي في درهم أو دينار

الثامنة :

إحياء الأخوة الإسلامية التي كادت تندثر ، وبث مشاعرها في النفوس ، ولوازمها في المجتمع واعلم أنه لا أفسد على الأخوة من الحزبية ، وأن الأخوة الإسلامية ، لا يفسدها خلاف ، ولا يعطِّلُ الشعور بها شقاق .. فهي ملازمة لدينك ملازمة الروح للجسد ، والماء للشجر

التاسعة :

الحذر من الانصباغ بصبغة معينة ، أو حزبية ضيقة ، أو جزئية من جزئيات الدين - ولو كانت صحيحة - أو سلوك طريق غير طريق الذين أنعم

اللَّه عليهم . أو التقوقع حول علم دون بصيرة بما يدور حوله ، أو الاهتمام بالمهم دون الأهم ، أو التعصُّب للهيئات والأشخاص ، أو الجماعات ، أو العمل بلا علم ، أو العلم بلا عمل ، أو معاداة بعض الجماعات الإسلامية كمعاداة الكفار بدل النُّصح لها ، أو تفسير النُّصح بالمعاداة ، أو اتباع أسلوب في الدعوة يُنافي الحكمةَ ، أو يكون في دعوته مداهناً

بل يكون بالإسلام ملتزماً ، ولدينه داعياً ومدافعاً ، وبالرسول ﷺ مقتدياً ، وبصحابته والتابعين والأئمَّة ومن سار على منهجهم مُتَّبِعاً ، وعنهم منافحاً .

وأمثلة ذلك كثيرة في واقعنا الإسلامي

حذار أن تكون مع الجماعات التي بنت حولها سوراً ، وأقامت جدُراً غليظة ، تمنع النَّاس من دخولها ... والاشتراك معها ... بدعاوي ظاهرها الحق ، وباطنها الخطأ

العاشرة :

الحذر من خلط الأوراق :

فمعاداة الكفر لا يعني اتباع أساليب غير شرعية في مواجهته ...

وعدم مواجهته - من قبل بعض المسلمين - لا تعني عمالتهم

وخطأ العالم لا يعني إسقاطه ، وأنْ لا صواب عنده ، وخطأ بعض الجماعات الإسلامية وضلالها لا يلزم نصب العداء لها

وحبك لعالم أو داعية لا يعني عصمته وتخطئة العالم أو الداعية لا تعني الطعن به

الحادية عشرة :

الأخلاق وما أدراك ما الأخلاق ؟!

وقمة الأخلاق : أن لا ترد الخطأ بالخطأ ، والسيئة بالسيئة

وإنَّ للأخلاق منزلةً في تماسك المسلمين لا تقلُّ منزلةً عن التوحيد والمنهاج .

وإن لِلُّطف ، والابتسامة ، والإحسان ، وحسن الخُلُق ، من التأثير في قلوب الناس ، ما يفوق كل أسلوب وطريق

واعلم أن حُسْنَ الخلق آية على صدق دينك ، وعلامة على حُسْنِ نيتك لا يفسده خلاف ، ولا يبطله تنازع

وأخيراً :

إنَّ هذا كلَّه لمن المعروف والمسلّمات عند المسلمين

ولكنَّ المسألة في العمل والتطبيق !

ووااللَّهِ : ما أتيت بجديد ، وما أنا إلّا متبع غير مبتدع ، ولكنها ذكرى والذكرى تنفع المسلمين

وصلَّى اللَّه على سيدنا وحبيبنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعه إلى يوم الدين .

وآخر دعوانا أن الحمد للَّه ربِّ العالمين

الفهرس

مقدمة ٥

مباحث هذا الجزء ١١

من صفات الطائفة المنصورة الناجية ١٢

الصفة الأولى : صفة الاستمرارية ١٣

الصفة الثانية : الاجتماع على التوحيد والمنهاج ، والمفارقة عليها ١٨

آصرة التجمع ١٩

ثم ماذا ١٩

التوازن المطلوب ٢٠

علة موهومة ٢١

لا تفرق على سنة أو واجب ٢١

وجوب المفارقة ٢٢

من هي الجماعة التي اتصفت بهذه الصفة ٢٣

من صفات المخالفين ٢٤

الصفة الثالثة : الشمولية الدعوية ٢٧

الصد عن العلم سبيل الضالين ٢٩

لا تسويغ مع النص ٣١
من مفاهيم الطائفة المنصورة ٣٤
المفهوم الأول : كل ما أصابنا فبما كسبت أيدينا ٣٥
التحليل الصحيح ٣٧
لوازم هذا المفهوم ٣٨
هل للمعاصي أثر خفي ٣٩
المفهوم المنسي ٤٢
هو مفهوم فطري ٤٣
مثلنا ومثلهم ٤٣
مفاسد مخالفة هذا المفهوم ٤٤
ثمرات الإيمان بهذا المفهوم ٥٠
الإعداد والحذر شيء والاستخفاف بهم شيء آخر ٥٥
المفهوم الثاني : تغيير واقعنا إنما يكون بتغيير ما بنفوسنا أولاً ٥٨
ما هو التغيير ؟ ٥٩
هل غيرنا ياعباد الله ٦٠
عقوبة المخالفين ٦٣
خلاصة هذا المفهوم ٦٤
المفهوم الثالث : تربية الفرد ، ووحدة الصف قبل مناجزة العدو ٦٥
واقع المسلمين ٦٦
صبر النبي ﷺ في مكة كان تثبيطا أم حكمة ٦٨
الأسباب الكامنة وراء حكمتهم وصبرهم ٦٩

موعظة للعقلاء فقط ٧٣
ماهي التربية ٧٥
آثار التربية ومفاسد هجرها ٧٩
أهمية وحدة الصف ٨٠
من أركان العمل الجماعي ٨٠
أربع من أسباب نكباتنا ٨٢
شبهة شائعة ... إلى متى نربي ٨٤
كيف نبني وهم يهدمون ؟ ٨٤
الجواب من وجوه ٨٤
خلاصة هذا المفهوم ٩٠
مراحل طلب العلم ٩١
خلاصة الأجزاء السابقة ٩٥
الفهرس ١٠٠

دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع
الدمام - ت / ٨٤٢٨١٤٦
٧

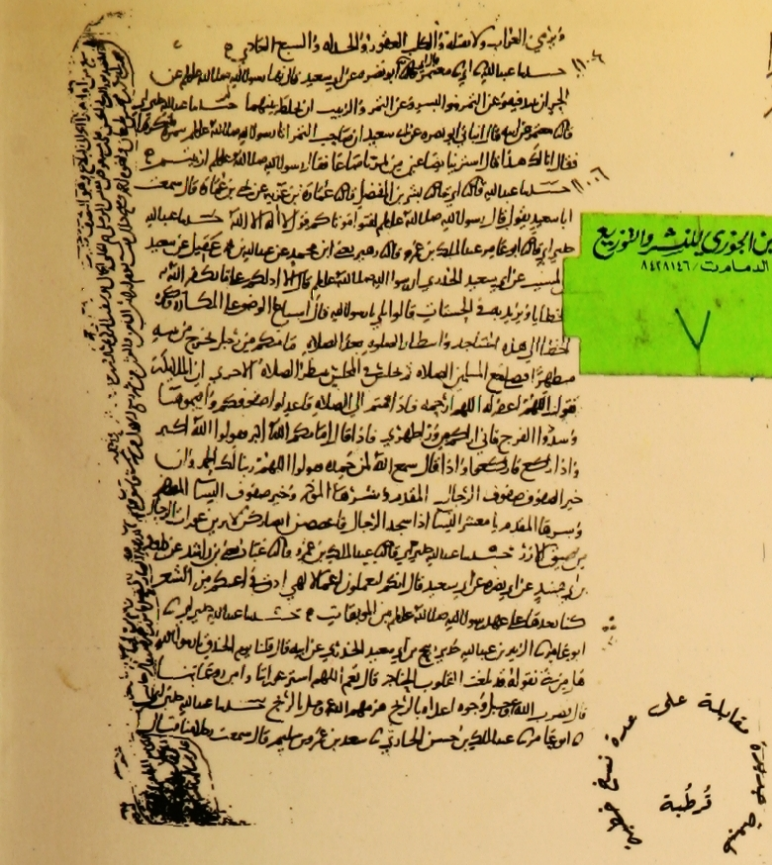

مخرجة الأحاديث تخريجاً علمياً

من

مسند الإمام أحمد بن حنبل

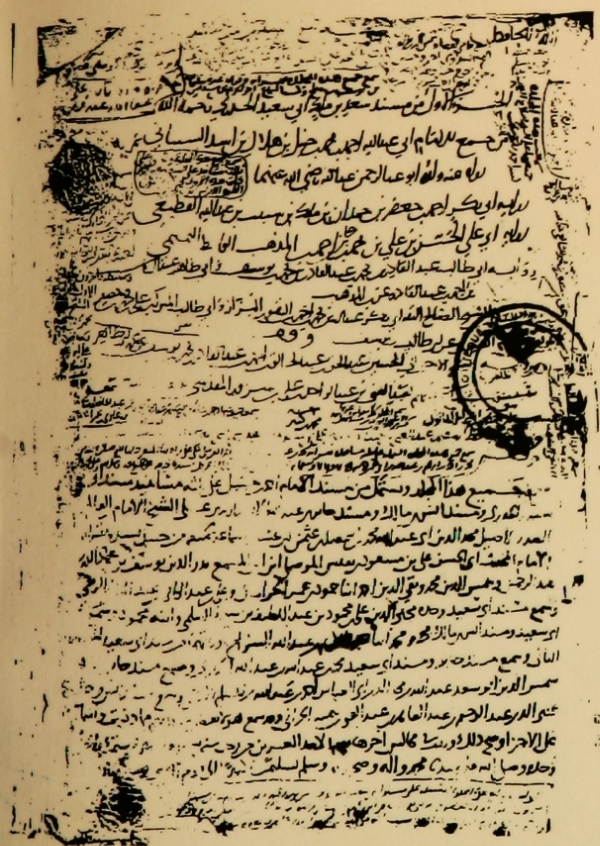

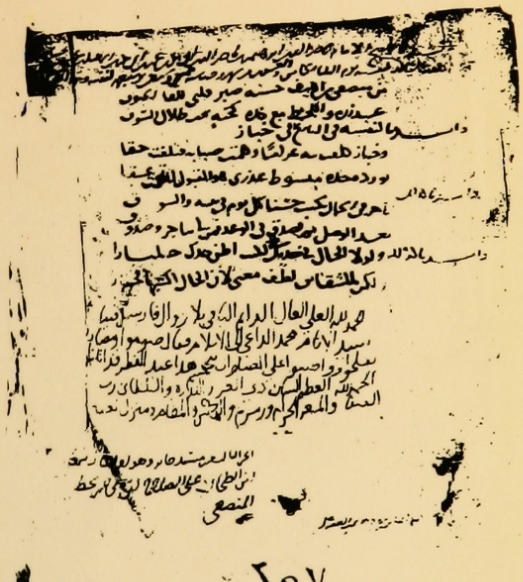

اللوحة الأولى والثانية من النسخة الظاهرية ظ ١